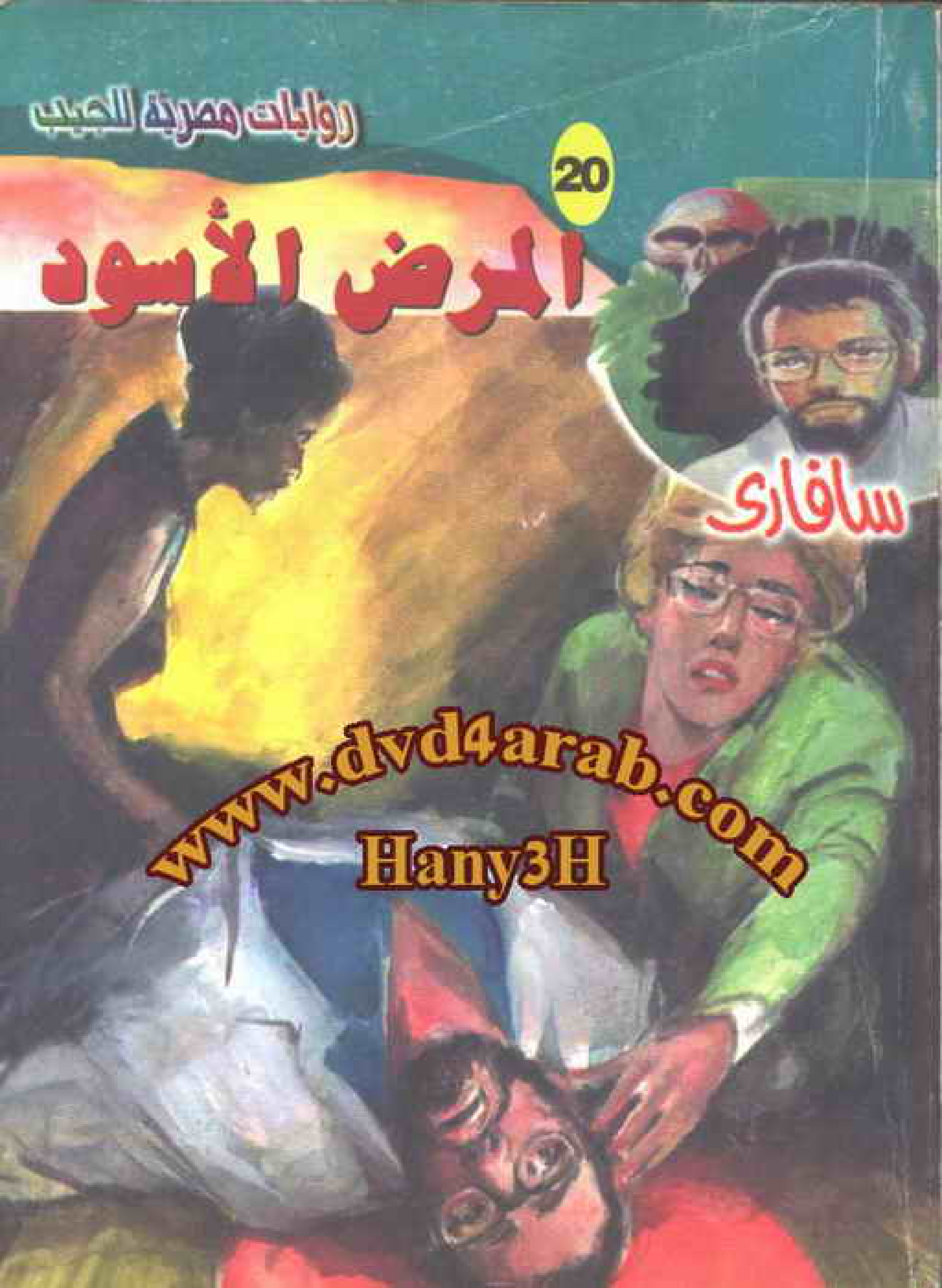

روايات مصرية للجيب
20
المرض الأسود
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــدمـة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون).. تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ السعادة ممكنة أحيانًا ..

كما يعرف القراء كنت أعيش فى (كينيا) فى هذه الفترة الصاخبة من حياتى .. وكان أعظم التحولات على الأبواب .. كنت دومًا أعتقد أهم ثلاثة أيام فى حياة الإنسان هى يوم يولد ويوم يتزوج ويوم يموت .. وأنا قد عرفت يومين من الثلاثة لكنى لن أعرف الثالث أبدًا .. سأموت ولن أعرف أننى عرفت !

لماذا لم أدع أحدًا منكم ؟ هل تمزحون ؟ هل كنتم ستقطعون كل هذه المسافة من أجل سواد عينى ؟ دعكم من أن كل شىء تم بشكلٍ مرتجلٍ سريع ولم تكن هناك إعدادات فيما عدا حفلاً بسيطًا أقامه لنا زملاؤنا الجدد فى وحدة (سافارى ـ ١) .. والحقيقة أنه حدث جلل هنا أن يتزوج طبيب طبيبة من نفس الوحدة .. لا أعرف شيئًا عن باقى وحدات (سافارى) ، لكن شيئًا كهذا على الأقل لم يحدث فى (الكاميرون) أو (كينيا) ..

كان الحفل متحفظًا بالطبع لأن ذكرى الفقيد (ولسلى) ما زالت شاخصة ـ كشبح ـ أمامنا .. لأن وحدة (سافارى)

بطبعها صارمة رصينة .. هذا الحفل إذن أقرب إلى ابتسامة جانبية متحفظة من عجوز لم يعتد إلا التقطيب .

طبعًا كانت هناك تورتة وبعض الخطب .. وجاء المدير بوجه مكفهر لكن الابتسامة الدبلوماسية إياها مرتسمة على شفتيه ، وصافحنى .. طبعًا مد شفتيه ليلثم العروس على خدها كعادة الأجانب .. لكنى جذبتها جوارى فى حزم .. ونظرت لهم جميعًا نظرة لا بأس بها من نظراتنا المصرية الشهيرة ، بما معناه : لو كان هذا من تقاليدكم فلتذهبوا إلى الجحيم .. عزف لنا أحد الأطباء على الكمان مارش (ها هى ذى العروس قادمة) ، وقذفوا علينا الكثير من الأرز على سبيل الدعابة ..

أما عن إجراءات الزواج نفسها فقد ساعدنى بعض المصريين فى السفارة هنا ، وزرنا السفارة الكندية كذلك بالطبع .. ثمة جبل من الأوراق لابد من إنهائه ، ولو كنت أعرف بوجوده لفكرت ألف مرة .. وتم إشهار الزواج فى أحد المساجد .. إن فى (كينيا) جالية إسلامية تمثل ستة بالمائة من السكان ..

أما عن الإقامة فقد منحونا غرفة واسعة كانت مغلقة فى مسكن الأطباء ، صارت هى عشنا الميمون مؤقتًا .. الخلاصة كان زواجًا سريعًا مرتجلاً .. لكنى عرفت أن هناك حفلين حقيقيين : الحفل الأول يوم نعود إلى (الكاميرون) ووحدة (سافارى) الأولى التى أحببتها كثيرًا .. هناك يمكن أن نفكر فى شىء كالبدء ..

الحفل الثانى فى مصر يوم نأخذ أول إجازة لنا .. لابد لأمى أن تقابل (برنادت) التى صار اسمها هنا مدام (عبد العظيم) .. لسوف تحبها بعد خمس دقائق .. أنا متأكد من هذا .. ربما كان هناك حفل ثالث فى (كندا) لكنى أشك فى هذا .. على الأقل لن يكون حفلاً .. إن حماى لقادر على إفساد ماء النيل ذاته بمزاجه العكر ، لكن الوقت ما زال مبكرًا على هذا الكلام .. ربما يكون كريم النفس ويموت قبل أن ألقاه ثانية ..

وماذا عن حياتنا ؟ عن غدنا ؟

هل نفارق (سافارى) يومًا ما ونعيش فى أى مكان ؟ أم أننا سنظل مربوطين بها إلى الأبد ؟ معنى هذا أننا سنعيش فى غرفة من مسكن الأطباء للأبد ؟

قالت (برنادت) باسمة وهى تشغل قرصًا مدمجًا على جهاز (الهاى فاى) الذى جاءت به من (أنجاوانديرى) :

ـ « لا تقلق .. سنجد مسكنًا مستقلاً يومًا ما .. سيكون هناك أطفال ، و(باركر) لن يسمح بأن يرى أطفالاً يلعبون فى ردهات (سافارى) حتى نفرغ من العمل !! »

ـ « لكن هناك حضانة و ... »

وضعت يدها الباردة على فمى ، وقالت :

ـ « يقال إن العرب قدريون يتركون كل شىء لوقته .. بينما نحن الغربيين نسرف فى التخطيط ونتحسب لكل شىء .. أرى أن الأوضاع مقلوبة بالنسبة لنا .. »

وبدأت الموسيقا تعزف ، وقلت لنفسى إن الغد فى علم الله (تعالى) .. لقد تحقق الحلم ، وبدأت أعتقد ـ للمرة الأولى فى حياتى ـ أن السعادة ممكنة أحيانًا ..

* * *

ـ « كنت تحبيننى منذ أتيت إلى (سافارى) ؟ »

ـ « لا ! »

ـ « كنت تسرين لدى رؤيتى ؟ »

ـ « لا ! »

ـ « كنت تتضايقين ؟ »

ـ « لا ! »

ـ « كنت ؟ »

ـ « لم أكن أشعر بأى شىء .. كنت موجودًا فحسب .. كنت صديقًا مخلصًا لا أكثر ولا أقل .. »

ـ « متى قررت أنك تميلين إلىّ ؟ »

ـ « عندما وقفنا فى الظلام ، وذلك المجنون الملوث بالإشعاع يصوب مسدسه إلى رأسينا .. عندها قلت لنفسى : أنت بلهاء يا فتاة .. كان هناك فتى يهيم بك حبًا .. وأنت أضعت الفرصة حتى اللحظة الأخيرة .. الآن لن يكون هناك (علاء) آخر ولا أنت أخرى .. كانت هذه أول قطرات تتسرب من السد » .

ـ « ومتى تهاوى السد ؟ »

ـ « حين كنا فى قرية الأفاعى وسألتنى فى الكوخ عن رأيى .. ولو لم تسأل لسألتك أنا يومًا ! »

ـ « حقًا ؟ كنت ستطلبين يدى ؟ »

ـ « لِمَ لا ؟ أكره إضاعة حياتى فى أسئلة بلهاء .. لابد أن أعرف ما لى وما على .. لكنى كنت سأفعل هذا على المدى البعيد .. »

★ ★ ★

لقد صاح الطائر يوم مولدى قائلاً (برنادت) .. لكن أمى لم تميز الكلمة .. ربما لأنها لا تعرف أية لغة أجنبية ..

★ ★ ★

أكره أن أبدد السعادة بالكلام عنها .. إن التعاسة بطبعها تغرى بالكلام .. كل القصائد والقصص يكتبها أشخاص تعساء أرادوا ـ بكرم نفس ـ أن يتقاسموا تعاستهم مع الآخرين .. وهناك فى غرفهم الموصدة ، يجلسون فى المساء ويلتهمون شطيرة من الطعمية ويشربون كوبًا من الشاى الثقيل .. تتصاعد الأبخرة إلى أمخاخهم فيمسكون القلم ليكتبوا : كم نحن تعساء لا أحد يفهمنا فى هذا العالم الشرير .. نحن نواقيس تدق فى عالم النسيان ..

أما السعادة فلا أحد يكتب عنها .. نحن نعيشها فى جشع ولا نشارك فيها أحدًا ..

كانت الأيام الأولى حلمًا .. شخصان كانا غريبين منذ أيام يستكشف كل منهما عالم الآخر فى انبهار .. فى وجل .. فى شغف .. لم تكن طباعنا مختلفة إلى هذا الحد وسرنى هذا .. أنت لاتعرف إنسانًا حتى تراه بعد استيقاظه من النوم ، طويل الذقن ، وهو جالس على حافة الفراش يهرش شعره الأشعث .. حسن .. لم أكن أفعل هذا وسرنى أنها لاتفعل ذلك ..

كما أنها كانت حريصة على فهم عاداتى ، ومعرفة ما لايروق لى وهو - بالتأكيد - كثير بحكم اختلاف الثقافات والعادات .. أكره أن أتكلم عن السعادة بدلاً من أن أعيشها ، كما أن الكلام عن الشمعة هو السبيل الأمثل لانطفائها ، لكنى كنت سعيدًا بحق .. وبدا لى أننى ولو مرة واحدة فى حياتى أحسنت الاختيار ..

- « وأنت ؟ هل أحسنت الاختيار ؟ »

صمتتْ وابتسمت ..

عندها عرفت الإجابة ...

الإجابة هى أنه لا إجابة هنالك . هذه الأشياء تُحس وتُشم وتعقل وتفهم .. لكنها لا تُقال ..

* * *

السعادة تعاش ولايتكلم أحد عنها .. لهذا سأخرس من هذه اللحظة فصاعدًا ، وأعود إلى عالم (سافارى) الصاخب ..

من نافلة القول طبعًا أن أقول إنه لايوجد هنا شهر عسل ، وإننا ذهبنا إلى عملنا فى الصباح التالى ليوم الزواج ، فلم يلقنى أحد بـ (صبحية مباركة يا عريس) .. ولم تقرصها إحدى لداتها فى ركبتها ، ولم تدخل أمها مزغردة حاملة الصينية إياها ..

ذهبنا للعمل كالعادة وكانت بداية هذه القصة ..

الأذكياء منكم لاحظوا أنها تدعى بالمرض الأسود ..

لايجب أن تكون خبيرًا طبيًا كى تعرف أنها تتحدث عن مرض .. مرض أسود طبعًا .. المرض الأسود ليس الطاعون .. بل ما اصطلحت الكتب الطبية على تسميته (كالا آزارا) ..

* * *

٢ـ طاردوا المرض الأسود ..

فى السيارة التى تتجه إلى الريف ، كنت جالسًا أنظر من النافذة ، أتسلى بمشاهدة معالم الطريق .. الحقيقة أن (كينيا) بلد دسم حافل بالغريب من الأشياء .. أعتقد أنه لو تضايقت من أشياء عدة هنا فلن يكون الملل بينها ..

تحسست جيبى وأخرجت الخطابين اللذين وصلانى من (الكاميرون) اليوم .. الأول كان بالعربية ، وكان من (بسام) طبعًا .. كان يهنئنى على الزواج ، ويتمنى لى الرفاء والبنين ، ثم يوصينى بأن أحترس من لدغة نبابة الصحراء التى يمكن أن تصيبنى بداء (كالا آزار) اللعين .. قال لى إنه علىّ ألا أنام فى طابق علوى .. ليكن نومى دومًا فى الطوابق الأرضية .. كأن الأمر يتوقف على مزاجى ! وقلت فى نفسى : يا لها من بلاد مفعمة بالخير ! ذباب عمى الأنهار .. وذباب تسى تسى .. والآن ذباب الصحراء .. الخلاصة أن البقاء حيًا هنا معجزة ..

الخطاب الثانى كان من (بارتلييه) العزيز .. كان يهنئنى ويعدنى بسرعة العودة إلى (سافارى) ـ (سافاريهم) لو شئنا الدقة ـ لأن (بودرجا) لم يمت بعد .. على الأرجح كان عبدة الأفاعى يبالغون نوعًا ..

طويت الخطابين إلى صدرى .. لقد قرأتهما عشر مرات على الأقل منذ الصباح ..

كان (سينوريه) الفرنسى جالسًا جوارى يحاول جاهدًا أن يقرأ .. طبعًا كان هذا مستحيلاً مع كل هذه الاهتزازات .. فطوى الكتاب الذى معه وسألنى باسمًا :

ـ « أخبار من (الكاميرون) ؟ »

ـ « أخبار وذكريات ومشاعر .. »

ـ « أنت محظوظ .. لا متعة تعدل تلقى الخطابات .. صدقنى .. مهما تقدمت سبل الترف فمازالت تتحداها جميعًا تلك المتعة الفردوسية للخطاب المغلق الذى يحمل اسمك .. »

حاولت أن أترجم له مقطع الشعر لـ (نزار قبانى)

الذى يقول : « طيبان لى .. طيب الخطاب وطيب كاتبة الخطاب .. » لكنى عجزت .. ثمة أشياء من العسير أن تترجم ..

سألته على سبيل تزجية الوقت :

- « بروفسور .. ما سر هذا الاسم الغريب (كالا آزار) ؟ هذا ليس مصطلحًا لاتينيا .. »

- « لقد افترس كثيرين من الهنود فى القرن التاسع عشر ، حتى أطلقوا عليه بلغتهم اسم (كالا آزار) أى (المرض الأسود) .. »

ثم استرخى فى مقعده باستمتاع ، وقال وقد أخذته نشوة المحاضرة :

- « عام ١٩٩٠ تمكن العالم البريطانى (ويليام بوج ليشمان) من ابتكار صبغة لتلوين طفيل المرض .. وبالتالى استطاع أن يراه بوضوح ويرسمه .. لهذا أطلقوا على الطفيل اسم (ليشمانيا) .. فيما بعد تمكن عالم آخر اسمه (دونوفان) من استخلاص الطفيل من الحال .. ولهذا ... »

أكملت كلامه فى انبهار :

- « ولهذا صار اسم الطفيل المسبب للمرض هو (ليشمانيا دونوفانى) .. »

إننى قد اعتدت السخرية من أشياء كثيرة ، لكنى ما زلت منبهرًا بحق بالطريقة التراكمية التى تكون بها العلم عبر كل هذه الأعوام .. كل سطر - ربما كل كلمة - فى أى كتاب طبى هو حيوات أشخاص عاشوا وماتوا كى يعرفوا .. (بلهارس) عاش ومات حتى نعرف البلهارسيا .. (وبروس) عاش ومات كى نعرف البروسيللا والتريبانوسوما .. و.. و.. حتى قياس الحرارة والنبض واستعمال المسماع .. كلها حيوات أناس عاشوا وماتوا من أجل فكرة واحدة ..

اليوم نلعب نحن دورًا صغيرًا بسيطًا .. إن داء (كالا آزار) قد تفشى فى مجموعة القرية الكينية هذه ، وهذا شىء يحدث من آن لآخر ، ويعرفه كل خبير أوبئة .. بل إنهم طوروا تقنيات كمبيوتر بوسعها استنتاج متى ينشط الوباء من جديد .. لكن وحدة

(سافارى) هنا لم تستطع ملاحقة هذا الكابوس بهذه السرعة، ولهذا بدأت قصة الانتداب من (الكاميرون) .. وصار من المعتاد أن يرسلوا هنا طبيبًا أو طبيبين من حين لآخر .. وليكن هذان من الذين يمكن الاستغناء عنهم .. أى أنهم لن يعطلوا دولاب العمل فى (الكاميرون) ..

كان عملنا بسيطًا جدًا لكنه كم لا بأس به .. علينا تشخيص الحالات وعلاجها حيث هى .. أى أنه لا مجال لدخول المستشفى .. منظمة (أطباء بلا حدود) جربت هذا من قبل فى (دوار) فى جنوب السودان، وأطلقوا على الأسلوب اسم (العلاج تحت الشجرة) .. وكان ناجحًا بالتأكيد ..

أردت أن أوضح لك أنها مهمة إدارية أكثر منها طبية .. عليك الإمساك بكم هائل من الدفاتر لتعرف مَن مِن المرضى أصيب بالداء، ومن تعاطى (البنتوستام) وما إلى ذلك ..

طبعًا كانت هناك - ودائمًا هناك - حشرة قاتلة هى

ذبابة الصحراء .. لكن السيطرة عليها لم تكن من عملنا .. إن أكثر وكالات الإغاثة موجودة فى (نيروبى) .. وهم يعرفون عملهم جيدًا .. كما أن لديهم خبراء صحة عالمية مختصين بالحشرات، ويعرفون جيدًا كيف يقهرون هذه الحشرة ..

على الأقل كانت المهمة اليوم ممتعة لأن (سينوريه) معى، وهو رجل مثقف واسع العلم، ويمكنه أن يكلمك عن الفن التأثيرى وفلسفة (برتراند راسل) بنفس الحماسة التى يتكلم بها عن تاريخ مرض النوم .. إنه مذياعٍ حى تم ضبطه على البرنامج الثانى الثقافى .. وأحيانًا يمكنك أن تشرد وتتركه يتكلم، بنفس الطريقة التى تترك بها المذياع يضفى خلفية شاحبة على أفكارك ..

قضينا الوقت فى قرى (الكيكويو) نلتهم (الكاسافا) الشنيعة .. ونفحص الحالات ونقوم بإحصائها .. الحقيقة أن تحاليل الدم مهمة جدًا وكذا عينات النخاع، لكن فى هذه الأماكن التى تعج بالوباء يمكنك دون جهد



قال (سينوريه) وهو يتحسس بطن أحد المرضى الراقدين فى كوخ :
ـ « لا أدرى .. لكن لا أشعر أن عقاراتنا تؤدى المطلوب منها جيدا » .

كبير أن تعتبر أية حالة فقر دم أو تضخم كبد وطحال ، أو تضخم فى العقد اللمفاوية .. تعتبرها (كالا آزار) كما أن طبيب الأرياف فى مصر يعتبر أى طحال متضخم ناتجًا عن البلهارسيا .. ليست هذه طريقة طبية تمامًا لكنها تقلل الجهد إلى حد ما ، وبعدها يستطيع المعمل أن يؤكد أو ينفى ما تعتقده ..

قال (سينوريه) وهو يتحسس بطن أحد المرضى الراقدين فى كوخ :

ـ « لا أدرى .. لكن لا أشعر أن عقاراتنا تؤدى المطلوب منها جيدًا .. لقد قضينا وقتًا أكثر من اللازم فى هذه القرية وما زلت أشعر أن الأمور ليست على ما يرام .. »

قلت له بلهجة العلماء العظام :

ـ « لابد من وقت .. »

ـ « نعم .. لكن الوباء لم يكن قط بهذه الشراسة .. »

* * *

هنا أجد الوقت قد حان كى نقول شيئًا أو شيئين على داء (كالا آزار) هذا ..

قلنا إن المرض يسببه طفيل وحيد الخلية اسمه (ليشمانيا دونوفانى) .. هناك أنواع عدة من الأمراض تسببها الليشمانيا ، والطفيل على كل حال موجود فى أكثر أرجاء العالم .. ستجد (محمود) فى الموصل مصابًا به فى جلده .. إنه مرض جلدى معروف هناك اسمه (قرحة بغداد) .. وستجد (بدرو) فى (شيللى) مصابًا به .. هناك يهاجم الأنف ، ويطلقون عليه اسم (اسبونديا) أو (قرحة شيكليرو) .. ستجد المرض فى عدة أقطار من أوروبا الشرقية .. بل ستجد حالات نادرة منه فى مصر .. ستجده فى إفريقيا الاستوائية ـ بالذات فى الشرق ـ لكنه هنا يهاجم الأعضاء الداخلية ، ويطلقون عليه اسم (كالا آزار) .. وهو مرض مميت ..

ينتقل المرض بوساطة ذبابة اسمها (ذبابة الصحراء) ولن استعمل اسمها اللاتينى هنا ..

القصة هى البساطة ذاتها : الذبابة تلدغ المريض لتمتص دمه ، ثم تحمل العدوى معها إلى الصحيح .. هناك حالات معدودة حدثت بعد نقل دماء ، وحالات حدثت من التلامس المباشر .. لكن هذه طرق عدوى محدودة الأهمية طبعًا .

الآن نفرض أنك ـ لاسمح اللّه ـ قد لدغت من ذبابة الصحراء .. سيمر شهران .. ربما أربعة .. حتى تجد تلك العقدة الصغيرة فى جلدك والتى تشى بدخول الطفيل المخيف إلى الجسم ..

تبدأ أعراض عامة أهمها الحمى .. الحمى المتقطعة المميزة للمرض .. يتضخم الطحال والكبد ثم تتضخم العقد اللمفاوية تحت إبطيك وفى عنقك وفى خن الفخذ .. أقول إننا نفرض طبعًا لا سمح اللّه ..

الآن صار المريض هزيلاً كالأشباح ، ولون جلده أسمر مما يعطيك فكرة عن سبب تسمية المرض .. الآن تظهر الأنيميا وقد تظهر الصفراء ..

مشكلة المرض أيضًا أنه غول يدمر الجهاز المناعى

للجسم ، وهو فى هذا يتصرف كالإيدز إلى حد ما .. ولهذا يرتبط مرض (كالا آزار) ارتباطًا وثيقًا بالدرن .. يكفى أن تذكر أمام المريض لفظة (درن) حتى يصاب به .. ولهذا فإن مرض (كالا آزار) يؤدى غالبًا إلى الوفاة خلال أسابيع إلى عامين ..

المرض سهل التشخيص كما قلنا حين تشك فيه ، أما لو غاب عن ذهنك فإنك ستعتبره أى شىء آخر .. وثمة مريض أصيب به فى إنجلترا وظل يعالج على أنه أنيميا شلل النخاع لمدة عام تقريبًا ، والحقيقة أن نقل الدم هو ما حفظ عليه حياته ..

ولتشخيص المرض يجب أن تجد الطفيل .. تجده فى عينات النخاع أو الطحال أو العقد اللمفاوية .. تجده فى غطاء أنابيب الاختبار المحتوية على الدم ، بعد خروجها من جهاز الطرد المركزى .. تجد الطفيل أو تجد ما يدل عليه وكفانا توغلاً فى تفاصيل طبية لا تهم الكثيرين ..

فقط أقول كلمة واحدة عن السيطرة على هذا المرض .. القضاء على ذبابة الصحراء أمر بالغ

الأهمية ، وهو الهدف الأساسى للمكافحة كما فى أى مرض تنقله حشرة .. وذبابة الصحراء وديعة إلى حد ما .. ليست شيطانًا رجيمًا كالذباب المسبب لمرض النوم وعمى الأنهار ، والذى يشبه زعماء العصابات الأمريكية .. إن ذبابة الصحراء هشة تقتلها المبيدات العادية جدًا .. إنها تهوى الظلام والأماكن الرطبة .. ولا تلدغ إلا عند الغروب والفجر .. ولا تطير لارتفاعات عالية ولا لمسافات بعيدة .. هذه نقطة مهمة فى المكافحة والوقاية ؛ لأن معنى هذا أنها لا تنتشر بسرعة فى مناطق الوباء ، ولا توسع دائرته ، كما أنها لا تلدغ من ينامون على السطح أو فى الطابق الأول من المبانى ، وهكذا ترون أن نصيحة (بسام) فى خطابه لم تكن بلا جدوى ..

يجب كذلك مكافحة الفئران لأنها تلعب دور مستودعات العدوى .. وهو دور تلعبه الكلاب والثعالب فى الهند .. لكن القضاء على الكلاب والثعالب سهل طبعًا ، بينما مكافحة الفئران عسيرة ..

هل بالغت فى ذكر المعلومات ؟ سامحونى .. لكن

لا يمكن الحديث عن المرض الأسود دون معرفة ما يسببه وكيف يشخص .. وفيما بعد يجب أن أحكى لكم كيف يعالج ..

★ ★ ★

كان هناك هذا الاختبار البسيط الذى يمارسه (سينوريه) بسرعة جوار المرضى .. يسحب عينة دم ، ثم يتركها قليلاً حتى ينفصل المصل .. بعد هذا يأخذ قطرات منه فى أنبوب اختبار ويضيف إليه بعض قطرات الفورمالين .. عندها كانت جلطة تتكون فى الأنبوب .. جلطة تشبه بياض البيضة المسلوقة ..

ـ « هذا هو دليلنا على ارتفاع نسبة الجلوبيولين المناعى .. »

قالها وهو يعد محقنًا آخر وأنبوبًا آخر .. كان يستعمل هذه الطريقة بكثرة للتشخيص ، وقد سألته :

ـ « هل هذا كاف لتشخيص (كالا آزار) ؟ »

ـ « ليس تمامًا .. لكنه اختبار مفيد جوار فراش المريض ، ويضيق دائرة البحث كثيرًا .. وبعد هذا

يمكننا أن نجرى المزيد من الاختبارات على الدم فى وحدة (سافارى) .. »

ثم ابتسم فى ثقة وأضاف :

ـ « حين يكون هناك وباء كوليرا فى الجوار ، وتقابل مريضًا مصابًا بإسهال شديد .. هل تنتظر نتائج المختبر قبل أن تقول إنه مريض كوليرا ؟ »

ـ « وربما لم يكن مريض كوليرا .. هذا وارد .. »

ـ « ولكنه على الأرجح كذلك .. القاعدة الطبية الأولى التى يجب أن تتذكرها فى حياتك هى : صوت الحوافر يجعلك تفكر فى الخيول لا الحمير الوحشية .. »

الآن بدأت الشمس تغرب ، وكنت أتوق إلى العودة ..

الآن صار لـ (علاء) الجوّال الذى لا يستقر على حال ، هدف يجعله راغبًا فى العودة إلى (سافارى) كل ليلة .. ترى ماذا تفعلين الآن ؟ كيف كان يومك ؟

كنت مشتاقًا ، والأدهى أننى كنت متضايقًا من لدغات الذباب التى بدأت تتكاثر علىّ فى هذه الآونة .. فى هذا

المكان الموبوء يغدو لدغ الذباب شبيها فى خطره بلدغ الأفاعى .. كل شىء إذن يجعلنى راغبًا فى العودة ..

وكان كل الفريق الآن يعانى إرهاقًا اليوم ، وقد احمرت العيون ووهن التركيز ..

لهذا نظر (سينوريه) إلى ساعته وقال للسائق :

ـ « أرى أن نعود .. »

وبدأت الممرضات اللواتى كن منهمكات فى إعطاء جرعات العلاج يأتين من كل صوب .. إن بعض الممرضات يأتين إلى القرى يوميًا فى غياب الأطباء ، لأن جرعات (البنتوستام) تؤخذ بشكل يومى .. ولمدة ثلاثين يومًا .. فقط يكون على الأطباء تحديد الحالات أولاً ..

جلسنا فى السيارتين شاعرين بالدوار ، وبأن أطرافنا تخلت عنا تمامًا .. لكننا كنا راضين .. حين تنظر إلى كل هؤلاء الأطفال الذين تعرف أنك أنقذتهم ـ أو ستنقذهم ـ

من موت أكيد ، تشعر بالرضا عن النفس ، وبأنك لست سيئًا إلى الحد الذى تحاول نفسك أن تقنعك به ..

وتذكرت عمى الأنهار .. وشعرت بحنين غامر لأن أرى (إبراهيم سامبا) ..





٣ ـ الأمر ليس سهلاً ..

ـ « لقد استبقيت لك بعض العشاء .. »

قالتها (برنادت) فى مرح ، وهى تساعدنى على استبدال ثيابى .. كانت جالسة تقرأ رواية فرنسية ما ، حين عدت إلى الدار ـ الغرفة ـ فما إن رأيتها حتى تذكرت أغنية قديمة لفريق (البيتلز) تقول كلماتها :

« قد كانت نهاية يوم شاق .. ظللت أعمل فيه كالكلب .. وكان من الضرورى أن أنام كلوح الخشب .. لكن ما إن أعود إلى الدار وأرى ماصنعته بيديك ، حتى أشعر بأننى على ما يرام .. »

أغنية شاعرية كما ترى برغم أنها تصفنى بالكلب واللوح .. ولكن ـ الحقيقة ـ ينقصنا شىء مهم هنا هو المسكن .. أريد أن يكون لنا مطبخ وقاعة جلوس وجهاز تلفزيون .. الحجرة التى تكرم بها علينا المدير واسعة حقًا وبها (أنتريه) مريح ، لكنها

ليست عشنا المقصود .. وها هو ذا عشائى قد سرقته لى زوجتى من الكافتيريا حتى لا أضطر إلى الذهاب هناك وأنا منهمك إلى هذا الحد ..

كأنما فهمت أفكارى على الفور قالت لى :

ـ « هذه فترة مؤقتة .. لا تنس هذا .. سنجد منزلنا الخاص فى (أنجاوانديرى) .. »

وجلست على الأريكة ألتهم الطعام دون أن ألوكه فى فمى .. المهم الآن أن أنام فى الفراش كاللوح كما تقول الأغنية .. وأجمل ما فى الأمر أن غدًا إجازة .. سأنام حتى الظهيرة ، ولتقطع ذراعى إن لم أفعل ..

قالت لى وقد رأتنى أنهض بعدما انتهى الطعام القليل :

ـ « لاتنس أن تصلى .. لاتدع الإجهاد يقهرك .. »

نظرت لها فى مودة وابتسمت .. إنها تحترم كل ما أحرص عليه ، حتى لو لم يكن من صميم عقيدتها .. هذه هى (برنادت) .. (برنادت) التى صارت لى للأبد ..

* * *

الآن مرت ثلاثة أشهر علينا هنا ..

لم يكن هناك أطفال فى الطريق لأننا اتفقنا على تأجيل هذا المشروع حتى يكون لنا مسكننا الخاص .. طبعًا كان الاتفاق كذلك على أن أدرس باجتهاد ، لكن الإرهاق وتغير المكان جعلانى غير قادر على التركيز على الإطلاق ..

وكنت مستمرًا فى روتين حياتى المعتاد .. لا يعنى هذا أننى كنت دائمًا فى قرى (الكيكويو) .. أحيانًا كنت أمارس عملى فى قسم الجراحة ، وكان عدد لا بأس به من الأصدقاء قد انضموا إلى عالمى .. ولم أجد فيهم نماذج معينة جديرة بمقتها .. لا أحد مثل (أبراهام ليفى) .. لا أحد من هؤلاء الهولنديين المتعصبين الذين تكتظ بهم وحدة (سافارى) هناك .. ليس هناك أستاذ علم أمراض متعال مثل (جيديون) ولا طاووس أمريكى متبختر مثل (شيلبى) .. يوجد هنا وغد واحد واسمه (أنفريد ستيجوود) ، وهو للأسف المدير .. لكنى تعلمت أن ابتعد عنه ما استطعت ، وكان هذا سهلاً لأنه ابتعد بدوره عن (برنادت) .. ولم يكن مغرمًا بالتمتع بجمال عينىَّ ..

لكنه ـ صدق أو لا تصدق ـ استدعانى إلى مكتبه ذات ليلة .. كان هذا فى العاشرة مساءً ..

دخلت لأجده وحيدًا فى مكتبه الفخيم عطر الرائحة ، الذى تفعم جوه الموسيقا الشبيهة بالعطر ، ولا تدرى مصدرها بالضبط .. أحب هذه الموسيقا الأثيرية التى يصعب أن تعرف كيف ولدت ..

قال لى حين رآنى :

ـ « د. (عظيم) .. ثمة أشياء لا أفهمها فى تقارير داء (كالا آزار) هذه .. »

قلت له إنه مساء الخير ، فلم يبد على استعداد لتصديق هذه المعلومة .. ثم جلست وأردفت فى برود :

ـ « لا أدرى ما لا تفهمه يا سيدى .. الأمر واضح .. »

تأمل الورقة التى بين يديه وقال :

ـ « تقول إن الوباء لم ينحسر لحظة عن قرى (الكيكويو) التى تزورونها .. »

ـ « بعض المرضى تلقى أربعين حقنة (بنتوستام)

بلا أدنى استجابة .. نحن لانجرؤ على إعطاء المريض الواحد أكثر من ثلاثين حقنة .. لكننا كنا مضطرين ، وأحسب أن البروفسور (سينوريه) ذكر شيئًا مماثلاً فى تقاريره .. »

ثم أضفت مستمتعًا بإثارة غيظه :

- « الجديد هنا هو أن حالات الوفيات فى ازدياد مطرد .. والأهالى لا يعتقدون أننا نقدم لهم فائدة حقيقية .. »

داعب ذقنه بإصبعين مفكرًا ، ثم قال :

- « وتقترح أن تأتى إلينا هنا لجنة من خبراء الأوبئة لفهم ما يحدث .. »

- « هذا عملهم يا سيدى .. كما أطالب بإبلاغ منظمة الصحة العالمية .. »

- « لكن هذا لم يحدث قط .. فقط منذ جئت أنت .. »

ابتسمت فى تواضع وقلت :

- « ربما كنت نحسًا .. لكنك لن تجد مرجعًا طبيًا محترمًا يتكلم عن النحس باعتباره من مسببات الوباء .. »

لم يعلق ، وراح يحاول أن يبدو وسيمًا .. بالتأكيد قالت له خالته إنه يبدو فاتنًا حين يكون مهمومًا غارقًا فى الخواطر السوداء .. حسن .. أعتقد أنها كانت مخطئة ..

قال لى بعد دقيقة من الوسامة :

- « أنت إذن تريد الإبلاغ عن وباء من (كالا آزار) يقاوم (البنتوستام) ؟ »

- « بكل تأكيد ياسيدى .. وقد قلت هذا فى تقريرى ، واحتفظت منه بصورة كى يكون كلامى مسجلاً ورسميًا .. »

عاد يفكر ثم أخرج القلم ، وراح يدون شيئًا على الأوراق وهو يقول :

- « ليكن .. سيكون عليكم أن تبدعوا سياسة أخرى .. أريد أن تستعملوا (الفنجيزون) أو (الألوبيورينول) .. هذان هما خط الدفاع الثانى .. »

وكان العقار الثانى معقولاً ويمكن استعماله بنجاح ، أما العقار الأول فغالى الثمن عالى السمية ، ويحتاج إلى

مستشفى .. عقار كهذا لا يمكن إعطاؤه تحت شجرة ..

لكنى لزمت الصمت ، وقررت أن أبلغ (سينوريه) كى يرتب العلاج بطريقته طبقًا للعقار الثانى .. طبعًا لابد من أن يجتمع المدير مع العاملين فى المشروع وخاصة رئيسهم الفرنسى ..

قلت من جديد فى إصرار البغال :

- « سيدى .. مازلت أطلب رأى خبراء الأوبئة .. »

- « وأنا مازلت أؤكد لك أنك ترس فى هذه الآلة لايجب أن يتكلم عن أية استقلالية .. بل يعمل ويعمل ويعمل .. »

وهكذا غادرت الغرفة ، وقلت لنفسى إننى أخليت مسئوليتى .. إذا شاء الرجل أن يكون مغفلاً فهذا شأنه الخاص .. أنا لن أغير الكون لمجرد أننى أحب ذلك .. لست أنا من يمسك المقود ..

* * *

كما توقعت قال (سينوريه) :

- « ليس الأمر بهذه البساطة .. الصداع لايشفى بالأسبرين .. دعونا نجرب الباراسيتامول .. نحن نلعب لعبة خطرة هنا ، ولابد من وجود بروتوكول يتفق عليه الجميع ويوقعون عليه .. »

قلت له فى بساطة :

- كان رأيى دائمًا أن (ستيجوود) أبله .. هذا يفسر أشياء كثيرة .. »

ابتسم برغمه ، ثم أعلن أنه سيعقد اجتماعًا صغيرًا مع الرجل ، وأصر على أن أكون هناك معه .. لن نكون وحدنا لأن هناك اثنين آخرين من خبراء الأوبئة فى (سافارى) سيحضران الاجتماع معنا ..

إنه بحاجة إلى توقيعات .. إلى آراء ..

* * *

٤ـ لابد من تشخيص دقيق ..

جلس الجميع إلى المنضدة الطويلة التى تذكرك باجتماعات مجلس الأمن ـ لو كان مجلس الأمن يجتمع على منضدة ـ وقد تناثرت السكرتيرات الحسناوات كالزهور هنا وهناك يكتبن ، ويضعن ملفات محشوة بالأوراق أمامنا ثم يرفعنها بلا سبب واضح .. وإحداهن راحت فى توتر ـ كأنما تقوم بعملية حربية ـ تضع زجاجات عصير البرتقال أمام الحاضرين ..

وكان هناك جهاز كمبيوتر متصل بجهاز عرض جدارى ، كما كانت هناك عدة أجهزة تسجيل تلتمع أضواؤها فى جشع ..

تبادلت نظرة ذات معنى مع (سينوريه) ثم همست وقد أدركت أننا نفكر فى الشىء ذاته :

ـ إن الوغد يعرف كيف يتظاهر بالأهمية .. »

ـ « أعتقد أنه قلق بالنسبة لهذا الموضوع بالذات .. »

ـ « لا .. لكنه يمثل القلق .. لابد من كل هذا الصخب الهستيرى كلما أراد أن يناقش شيئًا حتى ولو كان انسداد بالوعة الحمام .. »

كان الجالسون هم العبد لله طبعًا و(سينوريه) .. وأستاذ أوبئة يابانى اسمه (ميكايومو) وأستاذ طب وقائى أمريكى اسمه (ويدمارك) .. وبالطبع كانت هناك خبيرة فى علم الأدوية لا أعرف جنسيتها بالضبط ، لكنها أقرب إلى الروس ..

وكانت عينا (ستيجوود) تنظران لى نظرة من طراز (هل ـ لابد ـ لهذا ـ الحيوان ـ أن ـ يكون ـ معنا ؟) ، فكنت أبادله نظرة من طراز (سينوريه ـ هو ـ من ـ طلب ـ هذا ـ فلا ـ رأى ـ لك) ..

بدأ الاجتماع بأن قال (ستيجوود) وهو يتظاهر بالوسامة والحزن :

ـ « أعتقد أن السادة المجتمعين هنا يعرفون جميعًا أننا نواجه مشكلة جديدة .. وباء (كالا آزار) يتزايد انتشارًا وضراوة فى مجموعة قرى (الكيكويو) التى

نعمل فيها .. هذه المجموعة بالذات .. هنا وهنا .. »

وأشار بالمؤشر الضوئى إلى شريحة علـى الجدار تمثل جزءًا من خارطة (كينيا) ..

ـ « وهنا وهنا .. الحالات تتزايد .. عقار (بنتوستام) لايؤدى عمله جيدًا أو لايؤديه على الإطلاق .. وثمة واحد من العاملين فى المشروع يقترح ـ بحماس الشباب المتهور ـ أن نبلغ منظمة الصحة العالمية عن أن وباء (كالا آزار) لايستجيب لعقار (بنتوستام) .. »

تصاعدت صيحات الاحتجاج والاستنكار .. يالغباء الشباب ! يا للحماقة !! وأعتقد أن الأمريكى كان على وشك أن يصاب بنوبة قلبية ، بينما السيدة كانت ستخرج مسدسًا وتطلق الرصاص على صدغها ..

ـ « هذا كلام متهور جدًا .. كلام مبالغ فيه .. إن كلمة كهذه ستحول وحدة (سافارى) إلى خلية نحل ، ولسوف يأتى كل علماء العالم إلى هنا ليروا كيف نعمل .. بعد هذا سيسخرون منا للأبد .. »

قال اليابانى بلهجة متعقلة بعض الشىء :

ـ « فى كل مرة تم الإبلاغ فيها عن وباء (كالا آزار) لايستجيب لعقار (بنتوستام) ، اتضح أن التشخيص خطأ ، وأن المرض كان ملاريا لم تشخص بعناية .. أحب أن أعرف الطرق التى تتبعونها لتشخيص المرض .. »

قال (سينوريه) فى كياسة :

ـ « نعتمد على الصورة السريرية .. نعتمد على اختبار (الفورمول) .. نعتمد على اختبار (إليزا) هنا فى (سافارى) .. »

ـ « وهل تجد هذا كافيًا ؟ »

ـ « لو لاحظتم ، فنحن نعمل بأسلوب (العلاج تحت الشجرة) ولاتوجد لدينا إمكانات متحذلقة .. لكنى أعتقد أن اختبار (إليزا) كاف جدًا .. »

قال اليابانى فى ضيق :

ـ « أول شىء يجب التأكد منه حين نجد مرضًا يأبى الاستجابة للعلاج ، هو أن نتأكد من أنه المرض حقًا .. »

هنـا قال المدير بلهجـة الدكتاتور الحازم الذى يكره الجدل العقيم :

- « أرى أن علينـا أن نجـرب اسـتعمال عقـارى (الفنجيزون) أو (الألوبيورينول) .. هـكذا ببساطة ومن دون إفساح المجال للجدل السفسطائى .. »

قال اليابانى وهو يصب لنفسه بعض الماء :

- « أرى أن علينا فحـص عينـات النخـاع العظمـى والعقد اللمفاوية والطحال .. »

ضم المدير كفيه وقال كمن ينصح طفلاً شقيًا :

- « هل تعرف كم يتكلف هذا بالنسبة للفرد ؟ دعك من نقل العينات وإعداد المزارع والصبغات ؟ لابد لنا فـى (سـافارى) مـن أن نتذكـر الإمكانيـات الماديـة ، وأن نعمل بأسلوب رخيص الثمن .. »

قال (سينوريه) وهو لايخفى ضيقه :

- « إن اختبار الفورمول لابأس به ورخيص الثمـن .. خاصـة ونحن نعرف أن هذه البـلاد تغص بمــرض (كالا آزار) .. »

قلت أنا فى حماسة :

- « لكنى أعتقد أن رأى البروفسور (ميكـايومو) جدير بالاعتبار .. إن الإنفاق على التشخيص قد يوفر علينا الإنفاق على علاج لاجدوى منه .. »

نظروا لى ولـم يقولـوا شيئًا .. بينمـا نظر لـى المدير نظرة من طراز (من - طلب - رأيك ؟) .. فنظرت لـه نظـرة مـن طـراز (إن - صحـة - رأيى - واضـحة - لأى - طفل) ..

لم يصبر المدير كثيرًا وأصدر قراره الذى لارجعـة فيه :

- « مع وافر احترامى لعلم كل الأساتذة هنـا ، فإننـى أنظر إلى الأمر نظرة بانورامية واسعة ترى العلـم والإرادة وحسـاب التكاليف معًا .. وإننى لأرى أن علينـا تجربـة الـ (ألوبيوريـنـول) قبـل أن نتكلم بصوت عـال عـن هواجسنا .. »

وهكذا انتهى الاجتماع وصار علينا التنفيذ ..

وفى الخارج مشيت مع (سينوريه) الذى بدأ يثير

غيظى فى الفترة الأخيرة .. شعرت بأنه لم يطن عن آرائه بشكل واضح .. وأنا أمقت الغاضبين فى سرهم الذين يتمتعون بشجاعة البعيد عن متناول اليد ..

قلت له وأنا أضغط على أعصابى :

ـ « سيدى .. أنت مؤمن بأن الحالات التى نصادفها حالات (كالا آزار) لاشك فيها .. وترى أن اختبار (الفورمول) كاف .. وبرغم هذا أنت ترفض اعتبار الداء مقاومًا للعلاج .. ثم أراك غير متحمس لتجربة عقار (ألوبيورينول) .. ألا ترى تناقضًا ما فى هذا الموقف ؟ »

قال فى حماسة فرنسية أصيلة :

ـ « نعم لا أرى تناقضًا .. هذه حالات (كالا آزار) لاشك فيها .. تقاوم العلاج بشكل لاشك فيه .. لكن تجربة عقار (ألوبيورينول) ليست بالسياسة المثلى .. »

ـ « والسياسة المثلى ؟ »

ـ « أن نزيد الجرعات من العلاج وننتظر النتيجة .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال مهمومًا :

ـ « يجب أن أتجه إلى الصيدلية لإنهاء الإجراءات الإدارية .. لابد من بدء العلاج الجديد فى أقرب فرصة .. »

ووقفت وحدى متململاً .. لحسن الحظ أنه ليس من واجبى اتخاذ القرارات الذكية .. كل ما على هو أن أنفذ ما يطلب منى .. ومهما كان غبيًا لاجدوى منه .. من الممتع أن يكون هناك من يأمرك بالأوامر الحمقاء فلا تتحمل أنت وزر ذلك أمام ضميرك ..

* * *

قالت لى (برنادت) وهى تقلب صفحات إحدى المجلات الطبية :

ـ « مازلت لا أرى الأمر بهذه الخطورة .. لقد وجد (كالا آزار) هنا ليبقى .. »

قلت لها وأنا ألوح بجوربى الذى نزعته حالاً :

ـ « جميل .. لكن المرض يتفاقم يومًا بعد يوم كأننا



قلت لها وأنا ألوح بجوربى الذى نزعته حالاً :
ـ « جميل .. لكن المرض يتفاقم يوماً بعد يوم كأننا لا نفعل شيئاً » .

لانفعل شيئاً .. كأن كل هذا الإجهاد والصراع نـوع من التسلية بدلاً مـن لعب الشطرنج .. والأدهى أننا لانفهم ما يحدث .. »

ابتسمت وقالت :

ـ « أنت تعرف أننا سنعود إلى وطننا سريعًا ونترك لهؤلاء القوم مشاكلهم وصراعاتهم .. فقط حـاول أن تجيد دورك ما دمت معهم .. يجب أن تكون من الباقين أحياء .. »

تثاءبت وقلت وأنا أمدد ساقى على الفراش :

ـ «نعم .. نعم .. أصير Survivor كما يقول الأمريكـان .. لكنى متأكد من شىء واحد .. هذا المرض ليس هـو (كالا آزار) .. »

ـ « هل تعنى أن هنـاك مرضًا يهاجم قرى (الكيكويو) ويسبب تضخم الطحال والغدد الللمفاويـة وفقر الدم ، وهو ليس المرض الأسود ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

ـ « وما هو المرض ؟ »

- « لا أدرى .. إن القائمة ثرية على كل حال .. يبدو لى من العسير فى عالم الطب أن يجد المرء مرضًا لا يسبب هذه العلامات .. »

فكرت قليلاً .. راحت تحك شعرها كأنما تستخرج الأفكار من فروة الرأس ، ثم قالت :

- « لا حل سوى الملاريا والدرن والتوكسوبلازما .. لكن إثبات هذا سهل على كل حال .. إما أنكم مجموعة من حمير الجر ، وإما أن هذه الأمراض تتخذ طابعًا عجيبًا فى (كينيا) .. »

- « ربما كان الجوابان صحيحين ! ربما كنا حمير جر تواجه مرضًا غير مألوف ! »

* * *

٥ - تجرى الرياح بما لا ..

تزأر السيارة التى ليس فيها ياى واحد سليم عبر الطرقات الوعرة الموحلة .. لكنى فى نهاية اليوم عائد إليك ..

العرق والذباب يغمرنى .. أشعر أن الذباب هو الآخر متورط .. ما ذنب هذا البائس كى يجد نفسه متورطًا فى بركة من العرق المالح ؟ لكنى فى نهاية اليوم عائد إليك ..

يصرخ رجال الكيكويو فى وجهنا .. ثمة مشادة عنيفة مع (تارو) المترجم ، وأحد الرجال السود يشير لنا ويتكلم فى عصبية .. ثمة شاب ينظر لى ويبصق .. إن الرسالة واضحة بلا ترجمة .. أنتم تأتون لتأخذوا دمنا وتحقنونا وتعطلونا عن أعمال الرعى ، وفى النهاية لا يبدو أنكم تفيدوننا بشىء .. لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟ أعرف هذا لكنى فى نهاية اليوم عائد إليك ..

تتفرق الممرضات ، ويبدأ توزيع العقار الجديد .. سيتم إعطاؤه على ثلاث جرعات لمدة عشرة أسابيع .. وهو يؤخذ بالفم لحسن الحظ .. أرى امرأة تبتعد حاملة الكيس الذى يحوى جرعتها اليومية .. تتجه إلى البئر وتتخلص منه فى احتقار .. إنها هكذا أفضل ؟ أعرف هذا لكنى فى نهاية اليوم عائد إليك ..

ذبابة الصحراء تحوم حولى .. أعرف شكلها الآن واعتدته ، وأعرف أن لدغتها ليست مزاحًا .. الآن أنا رأيتها وذببتها ، فماذا عن الساعة التالية حين أنهمك بالعمل ويشرد ذهنى ؟ لكنى فى نهاية اليوم عائد إليك ..

أمرّ بين حشايا يرقد عليها المرضى .. نفس المشهد التعس الذى يعرفه رجال وكالات الإغاثة .. حقًا لاجدوى من كل هذا المجهود الذى بذلناه فيما سبق .. ثمة شىء ما خطأ .. لكن ما هو ؟

لا أعرف .. لكنى أعرف شيئًا واحدًا .. أنا فى نهاية اليوم عائد إليك ..

★ ★ ★

مر الآن أسبوعان .. وقد حان الوقت لنبلغ المدير بما حدث ..

توجهنا إلى مكتبه العطر الفاخر ، أنا و(سينوريه) .. فدخل (سينوريه) ، على حين جلست أنا فى الخارج وسط السكرتيرات الحسناوات اللاتى يبعثرهن الرجل حيثما ذهب ..

سألتنى إحداهن إذ وجدتنى جالسًا أتسلى بطقطقة سلاميات يدى :

ـ « وأنت يا دكتور .. ألن تلقى المدير ؟ »

فتحت ذراعى كأنما أمسك مقودًا وأصدرت صوت محرك .. فنظرت لى فى غباء وتساءلت :

ـ « ماذا تعنى بالضبط ؟ »

قلت فى بساطة :

ـ « موتوسيكل .. أنا مجرد موتوسيكل .. »

ـ « ما زلت لا أفهم .. »

يضايقنى هذا الغباء الأوروبى الذى لاحد له .. متى يفهمون ما فهمه المصريون من قرون ؟ قلت لها مفسرًا :

ـ « أنا نوع من موكب التشريف للبروفسور (سينوريه) .. ووجودى هنا يضفى عليه أهمية لا بأس بها .. كما تفعل الدراجات البخارية التى تتقدم مواكب المسئولين ! »

بدا على وجهها كم أنا سمج .. ولا ألومها .. إنها لن تفهم أشياء كهذه ولو بعد ألف عام ..

هنا اندلع صراخ (ستيجوود) من الداخل ، ووثبت السكرتيرات فى الهواء ، لكنى كنت أتوقع هذا :

ـ « ماذا ؟ لم يحدث أى فارق ؟! بعد العقار الجديد ؟ »

بعد قليل خرج (سينوريه) ممتقع الوجه قليلاً ، وأشار لى أن أتبعه فنظرت للسكرتيرة الحسناء وقلت هامسًا :

ـ « هل فهمت الآن أهمية وجودى ؟ أنا أضفى على خروج الرجل نوعًا من الهيبة بدلاً من أن يبدو مطرودًا .. »

قلت للبروفسور الفرنسى ونحن نبتعد :

ـ « يبدو أنك أخبرته .. »

هزّ عوده النحيل فى توتر ، وضاقت عيناه الفرنسيتان الضيقتان من الأصل كعادة الفرنسيين .. وراح يرطم بالفرنسية ثم قال :

ـ « طبعًا .. والرجل يغلى الآن كمرجل .. »

ـ «وطلب منك البدء فى إجراء التحاليل العنيفة إياها ؟»

ابتسم فى إرهاق ووضع يده على كتفى متبسطًا كعادة الفرنسيين ـ أيضًا ـ وراح يعد بأصابع يده الطليقة :

ـ « تحليل ومزارع لنخاع العظام .. خزعات من الطحال .. صور دم متكررة .. لختبار (إليزا) !! ياللهول .. إن الرجل أشبه بعفريت خرج من محبسه ، وهو ينوى أن يحيل الأرض خرابًا تنعق فيه الغربان .. »

ـ « حان الوقت لهذه الخطوة .. كان يجب عملها من البداية .. »

وبشىء من التهذيب والكياسة قلت له :

ـ « سيدى .. أنا لا أزعم أن لى ربع قاماتكم الشامخة ، لكن الطب اليوم لم يعد يعتمد على الحدس .. العملية

فيما أفهم بالغة التعقيد .. ولم يعد أحد يعتمد على إحساسه الشخصى بأن هذا هو المرض .. لابد من أن يدعم المعمل وجهة نظرك .. وقديمًا قالوا عن الدرن : بعد فحص المريض يكون الدرن احتمالاً .. بعد أشعة الصدر يكون الدرن اشتباهًا .. بعد المعمل يصير الدرن حقيقة لاشك فيها .. »

رفع إصبعه ليصحح كلامى :

- « إلا فى إفريقيا .. إن نقص الإمكانات يجعلك تعتمد على الحدس أكثر من اللازم .. لابد من مال .. مال كثير كى تمارس الطب بالمثالية التى تتحدث عنها الكتب .. »

ثم هز رأسه وأطلق سراحى وقال :

- « على كل حال لقد دارت العجلة ولسوف نرى .. »

★ ★ ★

كان أعقد شىء فى العالم أن تأخذ العينات ..

الأهالى لم يكونوا متحمسين لنا على الإطلاق الآن ، وبرغم أنهم مسالمون فإننى لمحت فى عيونهم نظرات تنذر بالويل .. تخيل أن تقنع هؤلاء بأن يسمحوا لك بثقب عظامهم للحصول على ما تريد من نخاع ، وهى عملية لك أن تعرف أنها ليست بلا ألم .. كما أننا كنا بحاجة إلى بعض عينات من الطحال ، وهى عملية مفزعة برغم أنها ليست خطيرة جدًا .. إن هى إلا إبرة محقن عادية يتم غرسها فى طحال متضخم أصلاً ، ومع بعض التخدير الموضعى .. كان هذا يتم من حين لآخر من قبل لكنهم كانوا يرون نتائج لا بأس بها دومًا ، أما الآن فهم يحسبوننا نتسلى لا أكثر ..

يتم أخذ العينات وزرعها على مزرعة تدعى (NNN) وسرعان ما نعرف الحقيقة ..

لماذا تفشى وباء (كالا آزار) بهذا الشكل الغريب وسط القبائل ؟

لماذا لم يعد يستجيب للعلاج ؟

ثم - السؤال الأهم - هل هو (كالا آزار) حقًا ؟

المهم أننا أخذنا عددًا من العينات لا يقل عن الخمسمائة من عشر قرى .. وكان على الإيرانى (عباس فرهاد) طبيب المختبر أن يؤكد أو ينفى أن هذا (كالا آزار) ..

بالنسبة لى كان الأمر واضحًا .. لقد راجعت كل شىء عن المرض فى مراجع طب المناطق الحارة وبالتالى أعتقد أننى أعرف ما يعرفه هؤلاء السادة ، مع حفظ الألقاب بالنسبة للخبرة طبعًا ، لأن الخبرة لا تباع فى المتاجر ولا تجدها فى الكتب .. ولو اعتقدت هذا لصرت سخيفًا كطفل عمره ثلاث سنوات يصر على أنه يستطيع قيادة طائرة إلى القمر !

(سينوريه) يعتمد على الصورة السريرية + اختبار الفورمول + اختبار إليزا ..

هناك أمراض عديدة تعطى نتائج خادعة فى هذا الصدد .. هل اختبار (إليزا) دقيق ؟ بالطبع لا .. إن الدرن والملاريا والتوكسوبلازما لها تعطى نتائج زائفة فى اختبار (إليزا) .. بعبارة أخرى لا شىء يؤكد التشخيص إلا العثور على الطفيل القاتل فى العينات التى وجدناها ..

وكان الأمر مؤكدًا بالنسبة لى .. هذه الحالات ليست (كالا آزار) ..

هذا مرض جديد ، أو مرض قديم يتخذ شكلاً جديدًا ..

كم من الوقت يجب أن ينتظر هؤلاء السادة كى يعرفوا أننى على حق ؟

* * *

وكما توقعت جاءت النتائج من المعمل وكانت مثيرة بحق ..

المرض هو (كالا آزار) نفسه بلا زيادة أو نقصان !!

حسن .. ماذا فى ذلك ؟ لا بأس من أن يكون المرء أحمق من حين لآخر على سبيل كسر الروتين .. وحتى (هومير) يحنى رأسه ..

المرض هو (كالا آزار) .. كيف أصارحك بهذا يا (برنادت) ؟ كنت أتمنى أن أفخر أمامك بأننى صائب الرأى دومًا .. على كل حال حين عرف (سينوريه) بالحقيقة اتسعت عيناه وقطب جبينه قلقا .. كنت

أتوقع أنه بالتأكيد فخور لأن طريقته (الكُفتجية) فى التشخيص برهنت عن نجاحها واتضح أنه بالفعل يملك إحساسًا صائبًا بالأمراض .. لكنه على كل حال لم يبدِ هذا وقال :

- « هذه المرة يجب إبلاغ منظمة الصحة العالمية .. لدينا وباء (كالا آزار) لا يستجيب للأدوية المعروفة .. »

ثم أردف وهو يرفع سماعة الهاتف :

- « بالأحرى لايستجيب لأى دواء على الإطلاق !! »

★ ★ ★

٦ - شىء جديد ..

- « يمكننى أن أسمعكم بشكل أفضل لو تكلمتم فى هدوء .. »

كان هذا هو المدير ، يحاول منع الثيران المتصارعة فى مكتبه من الصياح .. كان نفس السادة مجتمعين : أنا و(سينوريه) .. وأستاذ الأوبئة اليابانى (ميكايومو) وأستاذ الطب الوقائى الأمريكى (ويدمارك) .. وخبيرة علم الأدوية المجهولة .. لابد أن اسمها (إيكاترينا) .. لا توجد امرأة روسية لاتدعى (إيكاترينا) ..

كانوا يتصايحون ويتبادلون الاتهامات .. وكان ملخص ما قالوه هو :

١ - يوجد الكثير من (كالا آزار) فى البلاد هذه الأيام ..

٢ - هذا الوباء لا يشفى ..

٣ ـ لقد أضاعت وحدة (سفارى) وقتًا ثمينًا ومبالغ طائلة في علاج لا جدوى منه ، ولو تحركت بشكل منطقى سليم لعرفنا المشكلة فى وقت مبكر أكثر ..

٤ ـ الآن لابد من أن تتدخل منظمة الصحة العالمية ولسوف توجه لنا الكثير من اللوم على تأجيل إبلاغها .. وباعتبارنا مجموعة من الهواة .

٥ ـ لابد كذلك من تقديم كشف حساب للسلطات الكينية .. ماذا كانت الوحدة تفعل طيلة هذا الوقت ؟ لماذا لم تبلغ وزارة الصحة ؟

٦ ـ كل هذا بسبب الإدارة الحمقاء المغرورة التى لاتقبل آراء أحد ، وتتعامل بدكتاتورية لاشك فيها ..

طبعًا كنت موافقًا على كل هذه النقاط وبصفة خاصة النقطة السادسة ، وسرنى أن (ستيجوود) بدا كفأر فى مصيدة ، حتى إنه نسى التظاهر بالوسامة لمدة خمس دقائق كاملة .. عندها بدا لى على حقيقته .. بفكه الأبله المتدلى وعينيه الصغيرتين الشريرتين ، والعرق النابت على جبينه ..

ولم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله .. ما عدا اللوم طبعًا ..

كان لابد من أن تتحرك العجلة بالشكل الصحيح ، وأن يتم إبلاغ المنظمة ..

كنت جالسًا أتابع هذه المناقشات حين شعرت بأننى على غير ما يرام .. أعرف هذا الشعور الكريه .. الرغبة فى القيء والإحساس العام بعدم الاتزان ، حتى لتشعر بأن المائدة تسبح وترتفع نحوك .. شعور بأن الأرض أقرب من اللازم ، وأن العالم أصغر من اللازم ..

أخيرًا لم أستطع التماسك فتخليت عن جلستى وأفرغت معدتى على الأرض ..

ـ « ماذا دهاك ؟ »

كذا صاح (سينوريه) وهو يثب من مقعده .. لكنى كنت منهمكًا بنجاح فى العمل الذى بدأته .. وكنت أشعر بأننى فى أسوأ حال .. وسمعت المدير العبقرى يقول :

ـ « إن الفتى فى أسوأ حال .. خذوه إلى العنابر ! »

وتحسس (سينوريه) جبهتى وقال :

ـ « هو محموم كذلك .. ربما هى الملاريا ؟ »

مسحت فمى بالمنديل وقلت وأنا أرتجف :

ـ « كلا .. ليست الملاريا .. أنا أتعاطى أقراص الوقاية من الملاريا .. »

ـ « ليكن .. كف عن التعليقات الذكية .. سيكون من الجميل أن تخرس بعض الوقت .. »

ولا أدرى كيف ولا متى نقلونى إلى الفراش .. كنت فى حالة مثيرة من الغيبوبة التى تظل العينان فيها مفتوحتين .. لم أكن أرى ولا أفهم .. لكنى كنت مفتوح العينين أرد على من يكلمنى .. كيف ؟ هذه هى الحالة الغريبة التى كنت أمر بها .

★ ★ ★

مع المساء كانت حالتى تتحسن وأدركت أن الحرارة

هبطت .. وكنت راقدًا الآن فى فراش بقسم الأمراض المعدية وجوارى (برنادت) وقد بدت عليها علامات قلق لا بأس به أبدًا ..

قلت لها فى إنهاك :

ـ « لا تخافى .. لن أموت بهذه البساطة .. »

قالت وهى تفتعل ابتسامة :

ـ « من قال إننى خائفة ؟ أنت لا تتصرف كالناس أبدًا .. ولا تموت أبدًا حين يبدو أنك ستفعلها ! »

كان (سينوريه) واقفًا على بعد خطوات ، فقال لى وهو ينزع المسماع من أذنيه :

ـ « لا يمكننا الحكم على سبب توعكك بهذه السرعة .. ربما كان الإرهاق أو ما نسميه نحن (فيروس الأربع وعشرين ساعة) الذى يأتى ويذهب قبل أن يتبين أحد ما هو .. أعتقد أن بوسعك الذهاب لتنام فى غرفتك ، وغدًا نستكمل الفحص .. »

ـ « هل هذا يعنى أننى بخير الآن ؟ »

ـ « أرى هذا .. فقط ثمة نقاط يجب استيضاحها غدًا .. »

كنت بثيابى الكاملة فتحاملت حتى تمكنت من مغادرة الفراش ، وتوكأت على كتف (برنادت) .. ثم اتجهنا للباب .. بالتأكيد أنا أتحسن .. أعرف هذا وأشعر به .. أنا طفل من النوع الذى لايقبل تنازلات ، وقد اعتدت أن أكون وافر الصحة .. لا أريد أن أفقد شيئًا من هذا الحق المكتسب ..

لكن الناس تمرض وتصاب بالإعاقة وتموت .. هذا هو ديدن الحياة .. وما من أحد يصاب بالمرض وهو يشتهى ذلك ..

وهكذا ذهبت إلى حجرتى ، وتناولت العشاء الذى ادخرته لى (برنادت) بشهية لابأس بها ..

بعد العشاء جلست جوارى على الأريكة وسألتنى السؤال الذى أجلته كل هذا الوقت :

ـ « هل أصبت بالـ (كالا آزار) ؟ »

نظرت لها وشعرت بأن العصارة الحمضية تتجمع فى حلقى .. لابد أن بركان (إتنا) لم يقذف حممه بنفس الحماسة برغم تاريخه الأسود المعروف .. كنت أخشى أن تسألى هذا السؤال .. ليتك لم تسألى هذا السؤال ..

ابتلعت ريقى وقلت لها :

ـ « لا أدرى .. أعتقد أن داء (كالا آزار) نفسه لايعرف إن كان عندى أم لا .. ولكن لماذا تسألين ؟ »

وضعت قبضتها تحت ذقنها مفكرة ، وقالت :

ـ « الدليل العرضى .. عندما يمرض شخص يتعامل مع الكوليرا نعتبر حالته كوليرا إلى أن يثبت العكس .. وأنت غارق فى مستنقع (كالا آزار) منذ أسابيع لاحصر لها .. »

قلت لها ما معناه (فأل الله ولا فألك) .. لكن هذه

من اللحظات التى يستحيل فيها أن تنقل إلى اللغات الأخرى معنى عربيا حميمًا وفيه ما فيه من إيحاءات ..

- « لابد من شىء أكثر أهمية من الدليل العرضى .. من حق من يعالج الـ (كالا آزار) أن يصاب بالزكام أو التهاب اللوزتين على ما أظن .. »

قالت بنفس الإصرار :

- « هل نسيت اللدغة ؟ »

وهنا بدأت أسترجع الحادثة الصغيرة التى وقعت لى منذ ثلاثة أشهر .. الحادثة التى محيت من ذاكرتى تمامًا ..

* * *

- « (علاء) .. ما هذا الشىء على عنقك ؟ »

كنت يومها أقف أمام المرآة بالفانلة الداخلية ، أحلق - أعنى أشذب - ذقنى .. وكنت شارد الذهن أدندن ، حين رأيت فى المرآة (برنادت) تقف خلفى وتنظر فى فضول إلى قفاى ، الأمر الذى بدا لى غريبًا ..

الزوجان لا يهمن حبًا بأقفية أزواجهن ، حتى لو كانت الزوجات كنديات ..

تحسست عنقى فى الموضع الذى يعلو ياقة القميص عادة .. ثمة عقدة غريبة صلبة قليلاً بحجم حبة الفول لو أن الحبة كانت من سلالة ممتازة ..

قلت لها وأنا أعود للحلاقة :

- « هذه لاشىء .. أنت تعرفين العرق والقذارة التى أعيش فيها و ... »

- « ليس بهذا اللون .. »

وفتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآة ، ووقفت خلفى لأتمكن من رؤية ما تراه هى .. حقًا رأيت العقدة ولم يكن منظرها مريحًا .. كانت بنية اللون صلبة لامعة .. عقدة شريرة فعلاً من الطراز الذى ينذر بالويل ..

قلت لها وأنا أجفف ذقنى :

- « نحن فى عالم مفعم باللدغات .. ولو ترك عشرة بالمائة فقط من الحشرات التى تلدغنى طيلة اليوم أثرًا لاعتبرت أننى سعيد الحظ .. »

قالت شاردة الذهن :

ـ « لا تستخف بالأمور يا (علاء) .. إن اللدغة فى إفريقيا الاستوائية قد تساوى حياتك ذاتها .. »

ـ « سأتذكر هذا .. »

بعد أسبوع اضمحلت الحبة توطئة لأن تختفى تمامًا .. من جلدى ومن ذاكرتى .. وصنفتها ضمن مئات الأشياء التى تحدث لنا ولا ندرى لها أى تفسير ..

* * *

الآن عادت الذكرى إلىّ وعادت إلى (برنادت) ..

المشكلة فى هذه الأمراض ذات فترة الحضانة الطويلة أنها تلعب اللعبة بشروط غير عادلة .. تلعبها بقسوة .. أنت تصاب بلدغة وتجد أنه لم يحدث شىء ، وأنك نجوت .. وتمر شهور . ربما أعوام .. بعدها يخبرك الأطباء أنك كنت أحمق وأنك أصبت بداء الفيل أو كالا آزار أو عمى الأنهار أو مرض النوم .. وليس جنون البقر ببعيد .. هذا رجل يصاب بجنون الأبقار لأنه التهم لحمًا مصابًا منذ عشرة أعوام ؟

كنت أكره القسوة فى كلماتها وإصرارها على تأكيد ما أكرهه ، لكنها كانت عملية جدًا وواثقة من منطقها .. وكنت أفضل فى هذه الظروف زوجة كاذبة تقول لى إن ما أعانيه مجرد سوء هضم بسبب التهام الفطائر ليلة أمس .. أما هذه الزوجة فتصر على أن أعتبر الأمر (كالا آزار) وعلىّ أن أطلب كل الفحوص الممكنة غدًا ..

قلت لها إننى سأفكر ..

هنا ـ وكأنما بفعل المجهود ـ شعرت بالنار تتصاعد من وجهى ومن عينى ..

العرق يغمر جسدى ، وقد عاودتنى رغبة القىء .. فقط شعرت بها تساعدنى على الرقاد فى الفراش ، ويدها الباردة المريحة تتحسس جبينى ، ثم همست :

ـ « لقد عادت الحمى .. سأبلغ (سينوريه) ؟

ـ « لا .. لا .. لا أريد .. سأرجئ كل شىء إلى الصباح .. »

ثم طلبت منها أن تذيب قرصين من الأسبرين الفوار

العرق يغمر جسدى ، وقد عاودتنى رغبة القىء .. فقط شعرت بها
تساعدنى على الرقاد فى الفراش ..

فى كوب من الماء ، وشربته ثم غصت فى الفراش بالمعنى الحرفى للكلمة .. وكانت قافلة الكوابيس تنتظرنى مكشرة عن أنيابها .. وكان أفرادها يرقصن طربًا ..

هو ذا أحمق جديد ؟ هو ذا أحمق جديد ؟

سنمرح كثيرًا يا شباب !



٧ ـ المرض الأسود ..

(هل كررت العنوان ؟ لم أعد أذكر فلا تنسوا أننى محموم) ..

قال لى دكتور (رالف موريسون) مختص الجراحة البريطانى :

ـ « لسوف يكون هذا مؤلمًا .. صحيح أننا حقنا مخدرًا موضعيًا لكنك بالتأكيد ستشعر بشىء ما .. »

كنت راقدًا على ظهرى أرمق ضوء الكشاف فى غرفة الجراحة .. شعور يذكرك بالكوابيس الفرويدية القديمة المرتبطة بالجراحة .. ذكريات معينة فى أذهاننا عن القرابين الوثنية القديمة . لله ما أصعب المرض ! خاصة بالنسبة لطبيب اعتاد أن يرى المرضى ولا يكون منهم ..

كانت عملية أخذ عينة من الطحال بسيطة يمكن أن

يقوم بها أى واحد ، لكنهم ـ على سبيل المجاملة ـ جعلوا مختص الجراحة يجريها لى ..

شعرت بالإبرة فتنهدت ، لكنه قال فى حزم :

ـ « لا تتنفس ! »

* * *

كان (سينوريه) أول من شك فى الأمر عندما فحصنى بعدما حدث فى الاجتماع .. لقد شعر بالطحال وشعر بالكبد متضخمين إلى حد ما .. صحيح أننى لم أصل إلى درجة السوء التى أراها فى المرضى ، لكن الرجل بدأ يشك .. ولم يخبرنى بشىء حتى لا يفسد ليلتى ، لكنه فى الصباح الباكر جاء إلى حجرتى وأصر على أن أصحبه إلى المختبر ..

كانت نتائج الأبحاث تباعًا جميلة جدًا .. جميلة بالنسبة لطفيل الليشمانيا طبعًا وليس لى ..

صار من الواضح الآن أننى مصاب بداء (كالا آزار) المخيف ، فلم يبق إلا فحص عينات الطحال

وزرعها على مزرعة NNN الشهيرة .. والنتيجة طبعًا تحصيل حاصل .. لكن لم يعد أحد يعتمد على الحدس الآن .. ليس ثانية ..

وانتظرت فى قلق فى عنبر الحالات المعدية .. انتظرت ومعى انتظرت (برنادت) ..

لهذا يتزوج الناس من حين لآخر .. أنت لست وحيدًا أبدًا .. هناك من يعبأ بك .. هناك من يخاف عليك حقًا .. هناك من ينتظر النتيجة فى قلق .. هناك من يجفف عرقك كلما احتشد على جبينك ..

هناك من يهتم ..

وقلت لنفسى إننى سأموت بالتأكيد .. لكنى سأموت سعيدًا على الأقل ..

لماذا سأموت ؟ لأننى لست أحمق .. أنا من الطراز الذى لايتعلق بآمال زائفة .. لو كان هذا هو (كالا آزار) - وهو (كالا آزار) حتمًا - فلا علاج له .. أنا مصاب بالمرض الذى سبب كل هذه المشاكل وعجزت كل عقاقيرنا عن شفائه .. سأكون حالة مثيرة للاهتمام

بالنسبة لأطباء الصحة العالمية ، ولسوف ينفثون غلايينهم فى حكمة وهم يدرسون حالتى .. ثم يشرحون جثتى باستمتاع ، ولربما علقوا رأسى فى مدخل مركز منظمة الصحة العالمية ..

كانت أمى متأكدة تمامًا هى وصديقى (أشرف) أننى سأعود بوباء لاشفاء له ، وأقضى عامًا أو عامين بين المستشفيات توطئة لأن أموت .. يبدو أنهما كانا على حق ..

عند المساء جاء (سينوريه) ليزف لى النبأ :

- « هذا وباء (كالا آزار) كما تكلمت عنه كتب الطب ! »

- « ألا بارك الله فيك .. وماذا عساى أن أفعل ؟ »

ضاقت عيناه الفرنسيتان الضيقتان أصلاً ، وازداد حول عينيه الفرنسيتين الحولاوين أصلاً ، وقال :

- « لاشىء .. سنبدأ بإعطائك البنتوستام طبعًا .. »

- « فإن لم يفد كان (الألوبيورينول) أو (الفنجيزون)

أو (الباروموماليسين) .. ربما استطعنا الحصول على بعض (الجاما إنترفيرون) .. فأنت طبيب وتستحق معاملة خاصة .. »

نظرت إلى (برنادت) وابتسمت برغمى .. ثم قلت للرجل المتحمس :

ـ « فإن لم يفد ؟ »

ـ « نستأصل طحالك ! هذا يفيد فى عدد لا بأس به من الحالات .. طبعًا ستختل مناعتك وقتها وسيكون عليك أخذ بعض اللقاحات للأبد ! »

شعرت بحق بأننى ملك .. إن الغد باسم يحوى آلاف الاحتمالات الشائقة ..

واسترخيت فى فراشى ، وقررت أن أترك معول الأيام كى يعنى بى ..

قالت (برنادت) وهى تمسك بيدى :

ـ « لكنى معك .. لاتنس هذا .. أنا زوجتك .. »

ـ « لو نسيت هذا لقضيت الآن من الكرب .. »

* * *

كانت الأيام التالية رائعة .. كما لابد أن تتوقعوا ..

لقد جربت العدوى فى (سافارى) لكنى لم أجرب قط الإصابة بمرض ليس له علاج ..

تلقيت الكثير من حقن (البنتوستام) فى الوريد ، وتذكرت ما قاله الأمريكان عندما تلقوا نفس العلاج للبلهارسيا فى مصر فى أثناء الحرب العالمية الثانية .. كان الواحد منهم يشعر بعد حقنه واحدة من (الطرطير) بأن قطار بضاعة مر على جسده .. وهذا أقل ما يوصف به عقار (البنتوستام) ابن عم (الطرطير) .. ولأسباب كهذه كان الفلاحون المصريون يكفون عن طلب العلاج بعد الحقنة الأولى ، ويفضلون الحياة بالبلهارسيا فى أجسادهم على الموت بعلاجها ! كان هذا طبعًا قبل أن يتحول علاج البلهارسيا إلى أقراص أربعة يبتلعها المريض ويعود ليمارس حياته الطبيعية ..

الحقيقة أن البنتوستام استخدم أولا لعلاج الـ (كالا آزار) . وحُقن به الجنود المصريون المصابون بالمرض فى السودان .. هنا لاحظ الرجال أن الدم الذى كان يظهر فى بولهم بسبب البلهارسيا قد اختفى .. هكذا عرف العلماء أن نفس العقار يصلح للكابوسين معًا : الليشمانيا والبلهارسيا ..

ما علينا .. إن الاستطراد مغر دائمًا بالنسبة لى كما تعلمون ..

مر علىّ أسبوعان من الحقن اليومية ، وكان (سينوريه) يتابع مراحل المرض ، ويجرى فحوص الدم بنفسه ..

الحقيقة - لاحظت (برنادت) - أننى كنت أتحسن ..

قد يبدو هذا غريبًا وبلا تفسير لكنه حقيقى ..

وفيما بعد جاء تقرير المعمل ليبرهن على الشىء ذاته .. زاد وزنى وتحسنت شهيتى ، ولم تعد الحمى تزورنى ، ثم إن الطحال والكبد بدآ ينكمشان ويعودان لحجمهما الطبيعى ..

فى بداية الأسبوع الرابع سمح لى المدير بأن أعود للعمل ، لأن الرقاد فى الفراش دون عمل شىء كاد يصيبنى بالجنون .. هكذا أنا على كل حال : أشعر بالملل من العمل المرهق ورتابة الحياة اليومية ، فإذا حصلت على إجازة إجبارية لم أعد أعرف ما أصنع بنفسى ..

وهكذا دخلت مع (برنادت) قسم الجراحة ، فتصايح بعض الأصدقاء حين رأونى وصافحت (برنادت) أحدهم بأسلوب (أعطنى خمسة) كما يفعل لاعبو السلة الأمريكان عند إحراز هدف ، وصاحت :

- « هل ترون ؟ هذا هو (علاء عبد العظيم) الذى لا يستطيع الموت أن ينال منه ! »

تذكرت مشهد شفاء (ريتشارد قلب الأسد) فى فيلم (الناصر صلاح الدين) ، وهو يخرج لجنوده بعد مرض طال ، ورحت أداعب هذا الطبيب وأمازح ذاك .. الحقيقة أن المجهود جعلنى أرتجف وبدأ عرق بارد يتكاثر فوق جبينى .. لكنى تماسكت .. أنا أكره المرض

وأكره أن يقال عنى إننى لم أشف بعد .. لاحظت أن (برنادت) تنظر لى فى قلق بعينى الأنثى الذكيتين ، ثم همست :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « طبعًا .. تذكرى أن الـ (كالا آزار) ليس التهابًا فى الحلق .. إنه مرض مميت وقد نجوت منه بعون الله .. »

ولكنى بدأت أشك فى قدرتى على مواصلة العمل ..

لحسن الحظ أنقذنى استدعاء لى .. المدير يريدنى ! لماذا ؟ لا أظنه يريد التهنئة .. ولو قهرنى المرض لاستدعى الليشمانيا إلى مكتبه ليهنئها بنفسه ويمنحها علاوة !

قالت (برنادت) فى غل :

ـ « الوغد ! لماذا لايجىء هو بنفسه ؟ أنت المريض الناقه وهو الصحيح .. »

قلت لها فى بساطة :

ـ « لا عليك .. الرجل حريص على سمعته كوغد .. وهو لا ينوى أن يضيع ما بناه طيلة هذه السنين .. »

قالت إنها ستوصلنى إلى هناك ثم تعود إلى عنابر الأطفال ، فتمنيت لها الخير .. وودعت رفاقى متجهًا إلى الإدارة .. وعلى باب المدير ، ابتسمت لى (برنادت) وكورت أنفها بأسلوب (التشنيكة) الذى جعلنى سمكة تتخبط فى شباكها منذ رأيتها أول مرة فى (سافارى) .. وانصرفت ..

اجتزت قاعة السكرتارية المفعمة بالحسناوات وأجهزة الحاسب الآلى وأجهزة الفاكس .. كأنها سكرتارية (جوبيتر) شخصيًا لو كانت له سكرتارية .. وحيتنى السكرتيرة إياها قائلة :

ـ « قد عاد الطبيب الهمام شهيد الواجب .. هل أنت اليوم بشخصك أم تلعب دور دراجة بخارية ؟ »

ـ « بشخصى .. المدير يريدنى .. »

وهكذا دخلت الغرفة المهيبة ، لأجد أكبر مجموعة

من الوطاويط رأيتها فى حياتى .. كان هناك عدد لايقل عن العشرة من السادة المهمين جدًا الذين لا أعرفهم .. لكنى رأيت فى الركن (سينوريه) يشرب بعض المرطبات والياباني (ميكايومو) .. وكان الطابع العام للغرفة هو الاحتلال .. مثلما وجد الضباط الفرنسيون أن رؤساءهم صاروا ألمانًا فى أثناء الحرب العالمية الثانية .. لم يعد المكان مكانهم ولم يعودوا أصحاب الكلمة العليا فى دارهم .. لقد جاء الغرباء ليسيطروا على كل شىء ..

قال لى (ستيجوود) وهو مدفون فى أحد الأركان :

ـ « تعال يا دكتور (عبد العظيم) .. يسعدنى أنك شفيت تمامًا .. »

طبعًا لم يسعده هذا ، لكنها التقاليد الحضارية التى تمنعنا ـ للأسف ـ من إطلاق الرصاص على كل من لايروق لنا .. وبدأ فى تعذيبى على الفور بذكر قائمة طويلة عملاقة من أسماء هؤلاء السادة .. البروفسور فلان .. الدكتور علان .. الأستاذ كذا .. وهى قائمة

لايمكن أن أتذكرها ولو بعد مليون سنة .. إنهم مجموعة من الناس .. هذا يكفى على كل حال ..

ـ « إن شفاءك قد أثار موجة من التفاؤل .. لكنه أثار كذلك بحرًا من علامات الاستفهام .. لماذا شفيت ؟ »

ـ « لا أدرى يا سيدى .. لكن لا أحسب هناك من يلومنى على هذا .. »

قال أحد الجالسين وهو سويدى من رجال الصحة العالمية (عرفت هذا لأنهم دائمًا يبدون هكذا) :

ـ « الفكرة هنا يا دكتور (عبد العظيم) أنك أصبت بنفس الوباء الذى أصاب الكيكويو .. كلاكما تلقى العلاج ذاته .. أنت شفيت بينما هم ازدادوا تدهورًا .. ألا يثير هذا علامات استفهام ؟!»

فكرت قليلاً .. حقًا خطر لى الشىء ذاته مرارًا .. لكن الإجابة منطقية :

ـ « بلى .. لكن هناك دائمًا سلالات مختلفة من نفس الطفيل تختلف استجابتها للعلاج . إن هذا موضوع طفرات واختلافات جينية أنتم أدرى بها .. »

ـ « من المنطقى أنك أصبت بذات السلالة التى أصيب بها أفراد (الكيكويو) .. »

قلت له وقد بدأت أتوتر بلا سبب .. كأننى فى امتحان شفوى موضوعه هو : لماذا شفيت ولم تمت أيها الشيطان ؟

ـ « ربما كان السبب هو أننى غير أسود .. كما تتصرف الملاريا تصرفًا غريبًا إذا أصابت البيض .. يختلف كلية عن تصرفها مع السود .. »

إن الأمثلة على هذا كثيرة على كل حال .. والدرن يتصرف مع السود ـ مثلاً ـ بشراسة غير معتادة ، بينما يسلك سلوكًا عاديًا متوقعًا مع البيض .. مرضى فقر الدم من نوع الخلايا المنجلية يقاومون الملاريا أكثر من سواهم ..

هناك دائمًا تفسير ما ..

لكن الرجل قال وهو يشعل غليونًا يحتاج إليه مظهره :

ـ « لابأس بها افتراضات .. لكننا لا نقبل الافتراضات .. وعلينا أن نبحث بعناية وندرس الطرز الجينى لطفيل (كالا آزار) الذى أصابك ، وذلك المتفشى هنا .. وعندها يمكننا أن نفهم .. »

* * *

٨ ـ نحن ندنو من الحل ..

لكنى برغم كل هذا أعرف أنك تنتظريننى ...

* * *

كما تتوقعون ، كانت الأيام التالية فترة لا تنتهى من البحوث .. وتحول المختبر إلى خلية نحل ، وأرسلت أجزاء من أنسجتى إلى أجزاء المعمورة .. لابد أن أنفى صار فى (هيوستون) وظفر قدمى فى (برن) ..

فى هذه الفترة تلقيت خطابًا من (سافارى) الأولى .. كان الخطاب من (آرثر شيلبى) طبعًا .. ماذا ظننتم ؟ لا أحد مثله يكتب بهذا الخط الجميل المنمق .. لقد اشتقت الرجل بحق برغم أنه ثرثار وممثل لايخلو من الادعاء ، لكنه ظريف ومفيد من دون شك ..

كان خطابه ردًا على خطاب سابق حكيت له فيه كل شىء .. سأحذف هنا مايهمنى وحدى فى الخطاب ، وأقص عليكم ما يعنينا أمره .. كان رده كما يلى :

« .. وليس هذا ذى بال .....

« نعود إلى قصتك الغريبة عن داء (كالا آزار) .. من المؤكد لى أن الوباء لم يغير نمطه الجينى ولا استجابته الدوائية فى منطقة (كينيا) .. أعرف أن المختبر سيبرهن على هذا بشكل مؤكد ، لكنى أعرف ما أقول ..

« ولقد استعنت بالخارطة الجينية الموجودة على الإنترنت ، وأؤكد من جديد أن السلالات التى تقاوم البنتوستام لا وجود لها فى وسط القارة ..

« ما معنى هذا ؟ معناه أن المرضى لم يصابوا بمرض غامض .. هم فقط لم يتلقوا العلاج الصحيح .. بينما تلقيته أنت .. وهذا يثير أسئلة خطرة هنا : كيف ومتى تم تبديل العلاج أو إغفاله ؟

« هذه هى النقطة التى يجب أن يبدأ بحثك منها لو كنت مهتمًا بالأمر ، أو يبدأ الآخرون منها لو أرادوا الجواب الصائب ..

« أما بالنسبة لموضوع زواجك المفاجئ هذا .. فأنا .. »

إلى هنا ينتهى الكلام العام ويبدأ الكلام الشخصى ..

كلام الرجل منطقى وكان يجب أن أفكر فيه من البداية .. المرض لا يستجيب .. المرض هو المرض إذن ليس العلاج هو العلاج ..

ولكن ما معنى هذا ؟ لا بد أن أخبر (سينوريه) بشكوكى، ومن ثم نجد إجابة معقولة .. لو بدأت بالمدير فلن أظفر بشىء على الإطلاق .. إن الرجل لا يطيقنى، ثم هو أحمق كالخراتيت .. ولسوف يفعل فقط ما يراه صوابًا ..

وهكذا جلست مع (سينوريه) فى مكتبه حيث كان يتسلى بتقليد لوحة شهيرة لـ (ديلا كروا)، وقلت له خلاصة ما فكرت فيه وفكر فيه أستاذ (سافارى) الأمريكى الغندور ..

قال لى (سينوريه) دون أن ينظر نحوى :

- « جميل .. جميل .. إن (آرثر شيلبى) لا بأس به بالنسبة لأمريكى، وقد قرأت له بحثين لا بأس بهما عن (الناكالانجا) .. إنه يملك أدوات الباحث ويمكنه بشىء من الجهد أن ينجح ! »

ابتسمت فى سرى حين سمعت هذا .. لو سمع (شيلبى) ما يقال لجن جنونه، هو الذى يعتبر نفسه عميد البحث العلمى فى العالم ..

واصل (سينوريه) الكلام المباح :

- « القصة هى أن علينا أن نتأكد أولاً من أن المرضين هما الشىء نفسه .. »

- « بلا شك هما المرض نفسه .. »

- « عندها نتخذ القرار الصحيح .. والآن متى تنفض عنك هذا الغبار أيها الشاب وتعود إلى قرى (الكيكويو) ؟ »

كنت أعرف أننى على أتم استعداد .. على الأقل أنا منيع ضد هذا الوباء الآن، وقد أصاب بأى شىء ما عدا (الكالا آزار) .. وكنت أعرف كذلك أن (برنادت) لن تمانع .. هذا عملى وعلىّ أن أقوم به ..

- « لو أردت أن يكون ذلك غدًا فلا مانع .. لكنى أريد أن تستخدم نفوذك وتتحفظ على كل ما لدينا هنا

من عينات (بنتوستام) و(ألوبيورينول) قبل أن يتم تبديله .. لن ننتظر كل هـذا الوقت ليثبت أننا تأخرنـا أكثر من اللازم .. بل لعلنـا تأخرنـا أكثر من الـلازم بالفعل هذه المرة .. »

ابتسم وقال :

ـ « لاتقلق بهذا الصدد .. لايمكن أن يتم الأمر بهذه السرعة .. »

★ ★ ★

كنت قد نسيت الطرق الوعرة والغبار وضوضاء السفر لكنى رحت أحمد الله على نعمة الصحة بينما السيارة تقعقع عبر الطرقات نحـو القريـة التاليـة ، وهـى (ماندونجوا) التى لابد أنكم تعرفونها الآن .. ماذا ؟ نسيتم الاسم ؟ إنهـا القريـة التى وجد فيهـا المرحـوم (ويلسلى) جمجمته .. لقد تم مسح هذه القريـة من جديد بينمـا كنـت أنـا مريضًا ، وتبيـن أن هنـاك عـددًا لابأس به من حـالات (كـالا آزار) .. وبدأ العلاج لكن الأمر ازداد سوءا كما هو الحال هذه الأيام ..

لقد صار لى أصدقاء لابأس بهم فى هذه القريـة ، وصار الزعيم صديقًا إلى حد ما ، ولهذا كان هو الأكثر تحفظًا فى التعبير عن خيبة أمله من علاجنا .. لقد هز لغده البدين اللامع كجلد الباذنجان وقال على لسان مترجمنا :

ـ «لم نرك منذ زمن يادكتور .. الأمور سيئة هنا .. »

وكانت عيناه تشيان باتهام صامت ولوم لاشك فيه ، لكنه كان يبتسم فى مودة رسمية دبلوماسية ..

قلت له إننى أعرف ما يعانون منه لأننى أنا بالذات أصبت بالشىء ذاته .. لكننا فى الطريق إلى السيطرة على الوباء .. يمكن أن أؤكد له هذا ..

وتفرقنا لأداء عملنا ..

راحت الممرضات يواصلن ما بدأنه من زمن : حقن المرضى بالبنتوستام طبقًا لجدول .. لم تتغير هذه السياسة لأن المرض برهن على أنه (كالا آزار) بلازيادة أو نقصان .. كما أن عقار (ألوبيورينول) لم يظهر نجاحًا على الإطلاق ..

هذه المرة رحت أراقب الفتيات فى اهتمام ..

كنّ خمسًا .. ومن المعروف أنهن يأتين إلى هنا يوميًا بالتناوب .. أى أنه لايجب أن يكون هناك طبيب فى كل مرة لأن الأطباء يأتون يومًا بعد يوم .. إن معهن قوائم الأسماء ويعرفن من تلقى العلاج ومن لم يتلقه ..

وإننى لأسائل نفسى ..

أولاهن اسمها (مالوالا) .. وهى سمراء بلون الفحم .. فتاة نحيلة تعسة لا تتكلم كثيرًا .. ويبدو أنها من (الكيكويو) هى نفسها ..

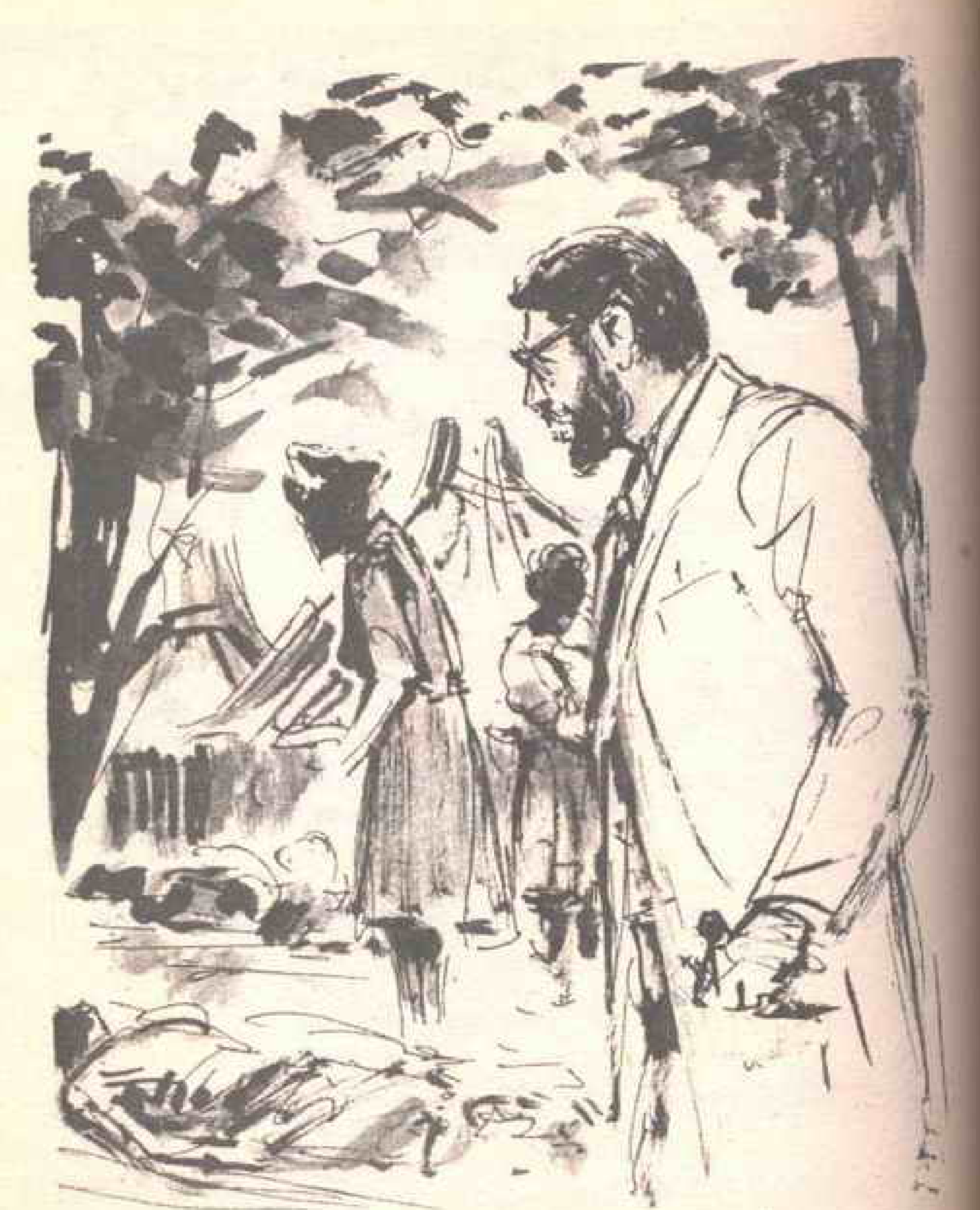
الثانية والثالثة امرأتان متزوجتان شديدتا البدانة .. لا أذكر اسميهما لأن هذه الأسماء تتشابه ، وعلى كل حال يصير الاسم قليل الأهمية حين تتحول إلى جوال من الشحم وزنه يزيد على المائة كيلوجرام .. إن الأسماء لن تضيف لك شيئًا وقتها .. الأسماء خلقت لمن يمكن نسيانهم من أمثالنا ..

الرابعة ممرضة تايلاندية رشيقة حسناء .. يبدو أن اسمها (مادوا) .. وهى من الطراز الذى يذكرك بالطيور فى الحجم والسلوك والطول وعادات الطعام وكل شىء .. طبعًا فتاة كهذه لايمكن نسيان اسمها ..

الخامسة ممرضة كينية من (نيروبى) وهى متحضرة ومثقفة نوعًا .. كما أنها بارعة جدًّا واسمها (ماريان) ..

من من هاته الممرضات يمكن أن يلعب هذه اللعبة القاسية ؟

لو تركت لخيالى البوليسى العنان لاتهمت التايلاندية طبعًا .. الجميلات هن المجرمات دومًا كما علمتنا السينما ، ولربما كنت بعد تحت تأثير حسناء آسيوية أخرى هى (ميرا ـ جوران) ، مما جعلنى أشك فى هذه ..



على سبيل الاحتياط دسست زجاجتين من زجاجات الدواء فى جيبى خلسة ..

الجريمة تحتاج إلى ثقافة ، فهل تكون (ماريان) هى التى ؟

أم أنها الأولى ؟ تبدو معقدة كارهة للحياة ونفسها .. لن أعرف أبدًا ما لم ترتكب إحداهن خطأ فاحشًا ..

لكننى كنت أعرف شيئًا مؤكدًا : من الآن فصاعدًا سينحسر الوباء لأن المتهمة تعرف ما نفكر فيه وما يتهامس به الجميع ولن تتلاعب بالعلاج ، ولسوف تعطيه كما هو مفروض .. لن تكون هناك خدع قذرة جديدة ..

على سبيل الاحتياط دسست زجاجتين من زجاجات الدواء فى جيبى خلسة ، وقررت أن أطلب من أحدهم تحليل المحتويات بمجرد العودة إلى (سافارى) ..

قمت كذلك بمراقبة أسلوب إعطاء العلاج .. وكان كل شىء على ما يرام طبعًا ..

لن توجد أخطاء من الآن فصاعدًا ، ولعل هذه مزية ما حدث .. ربما لن نجد الفاعل ثانية لكنه لن يفعل ما يفعله مرة أخرى ..

* * *

٩ ـ من هى ؟

قال لى (سينوريه) وهو يرشف (الكابوتشينو) الساخن فى نشوة :

ـ « القاعدة الأولى فى التحقيق هى أن تحدد من يستفيد من الجريمة .. هذا يقود رجال الشرطة إلى حل أكثر الجرائم الغامضة .. »

قلت له شارد الذهن :

ـ « هم م م م ! »

ـ « لو استطعت أن تقتحم عقل هؤلاء الممرضات وتضع نفسك مكان كل واحدة منهن لاستطعت أن تعرف .. »

ـ « هم م م م ! »

ـ « بعد هذا يأتى دور تحديد من أرسلها .. ومن علمها أن تفعل ما تفعله .. »

ـ « هم م م م ! »

وكنت أريد أن أقول له شيئًا واحدًا .. هو طبيب بارع .. أقر له بهذا ، لكنه لا يملك أية من المواهب البوليسية ، وقد جربت آراءه الصائبة فى قصة (ولسلى) السابقة وعرفت أنه لا يفهم شيئًا فى عالم الاستنتاجات ، وخياله لا يزيد عمقًا وواقعية عن خيال أى طفل ..

أما الشىء الآخر الذى أردت أن أقوله له فهو أن النهاية السعيدة قد جاءت ، ولسوف يعود الوباء إلى مكانه الطبيعى كما عرفناه فى مراجع طب المناطق الحارة والطفيليات . لقد برهن تحليل العينات على أن الموجود بالزجاجتين هو (بنتوستام) لاشك فيه .. وبالفعل يبدو لى أن مرضى هذه القرية ثبت عددهم أو بدأ يقل ..

لقد كفت الجهة القاتلة - التى لا أعرف كنهها - عن اللهو بأرواح الأفارقة البؤساء ..

★ ★ ★

لكننى حين عدت إلى الدار منهكا ككلب لأنام كلوح الخشب - كما يقول (البيتلز) - وجدت (برنادت) العزيزة قد أعدت لى مفاجأة صغيرة كالعادة ..

قالت لى وهى تكور أنفها بطريقة التشنيكة الخلابة :

- « الفاعلة هى (مالوالا) ! »

- « (مالوالا) من ؟ »

- « الممرضة الكينية النحيلة .. لقد عملت معى فى قسم الأطفال لفترة حين جئت هنا .. وأعرفها جيدًا .. »

نظرت لها فى غباء وتساءلت :

- « لم أكن أعرف أنك مهتمة بالأمر أصلاً .. ومن أخبرك بدائرة الشكوك هذه ؟ »

هرعت إلى المنضدة وأحضرت لى قطعة من الورق المقوى ، ألصقت عليها خارطة للمنطقة .. وقد ثبتت دبابيس ملونة على كل قرية من القرى .. هذا عمل دقيق جدًا .. عمل مرهق بحق .. ولم أتصور أنها رائقة المزاج إلى هذا الحد ..

قلت لها :

ـ « ما هذا بالضبط ؟ يشبه مجسمات العمليات فى الحرب .. »

ـ « هو كذلك .. كل لون من الدبابيس يرمز لممرضة .. وقد غرس الدبوس فى القرى التى عملت بها فى الفترة السابقة .. الدائرة الحمراء تحيط بالقرى التى توحش فيها الوباء أو تعذرت مقاومته .. الآن ما هو اللون الذى تراه فى كل قرية من تلك القرى المنكوبة ؟ »

ـ « الدبوس ذو اللون الأخضر .. »

ـ « هذا الدبوس يرمز إلى (مالوالا) .. إنه يتكرر دائمًا حيث يظهر الوباء كأنه المضاعف المشترك .. وهذا يعنى .. »

عدت أسألها فى عصبية :

ـ « أنت بعيدة جدًا عن موضوع (كالا آزار) هذا .. فكيف عرفت توزيع الممرضات على القرى ؟ »

ابتسمت فى خبث وقالت :

ـ « إن لى وسائلى .. إن رئيسة التمريض المسئولة عن التوزيع صارت صديقتى .. وقد عرفت منها الأسماء والقرى .. وفى أوراقك وجدت أسماء القرى التى تفاقم فيها الوباء .. كانت لعبة مسلية .. »

وضعت يدى على كتفها مبهورًا ، وقلت :

ـ « هذا عمل كثير جدًا بالنسبة ليوم واحد .. أنت عبقرية .. »

ـ « كنت أعرف أن الأمر سيبدو واضحًا لو أظهرناه على الورق بهذا الشكل .. إن الحلول البصرية هى الأفضل دائمًا .. »

رحت أراجع أسماء القرى .. حقًا كانت الفتاة هناك دائمًا ، وكانت ثابتة كيد جراح فى كل قرية أتعبتنا وأتعبناها .. يبدو أننا بالفعل على شفا الفهم .. ولكن يظل هناك سؤال مهم :

ـ « لماذا وكيف تفعلها ؟ »

قالت (برنادت) فى بساطة :

ـ « هذه مشكلة الكبار .. أما أنا فقدأنهيت واجبى المدرسى ولم أعد مطالبة بما هو أكثر .. »

رحت أفكر فى الأمر .. طبعًا لاجدوى من إبلاغ (ستيجوود) لأنه لا يجد لى مهمة فى الحياة إلا أن أثير سخطه أو أستفزه .. ولو أخبرته لتجاهل الأمر .. يجب أن أخبر (سينوريه) ..

لكن بأى شىء ؟ بأن الدبوس الأخضر يتكرر دائمًا؟ إذن أرجو ألا تقولوا رأيكم لأننى أعرفه جيدًا .. ثم إنه لابد من دليل قاطع .. دليل بوليسى واضح .. ربما لو وجدت هذا الدليل لصارت مهمتى سهلة ..

قلت لـ (برنادت) وأنا شارد الذهن برغم هذا :

ـ « أين تعيش هذه الممرضة الخضراء ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت :

ـ « فى مسكن الممرضات .. هذا واضح .. إنها من الكيكويو ، لكن ليس من السهل أن تبيت فى قريتها كل يوم .. »

ـ « هل تعرفين غرفتها ؟ »

ـ « أعتقد .. ولكن لا تقل إنك تفكر فى أن .. »

وضعت يدى على كتفها باسمًا :

ـ « أفكر فى أن أطلب منك أن .. »

ـ « ولماذا لا ؟ »

شعرت بسرور من هذه المحادثة البليغة .. كلانا يفهم الآخر دون استكمال جملة واحدة .. قلت لها فى هدوء :

ـ « لأن ضبط طبيب فى مسكن الممرضات كارثة .. بينما ضبط طبيبة أطفال كندية قد يمكن تبريره .. خطأ أو سوء فهم .. الخ .. »

فكرت قليلاً ثم هزت رأسها :

ـ « ليكن .. وما المطلوب منى بالضبط ؟ »

ـ « البحث عن شىء ما .. أنا لا أدرى ما هو .. ربما تدارى هناك حقن البنتوستام وتعطى المرضى ماء قراحًا ..

ربما تجدين زجاجات مليئة بطفيل (ليشمانيا دونوفانى) تعطيها للمرضى بدلاً من العلاج .. لا تنسى أن المرض قد ينتقل بنقل الدماء والمحاقن .. ربما تجدين مالاً كثيراً هو أجرها من السادة الذين يريدون لنا الفشل .. ربما تجدين مراسلات أو تجدين أوثانًا تمثل إله (الكالا آزار) الذى تعبده هذه الممرضة .. لا أدرى بالضبط ما أتوقع أن تجديه .. المهم أننى أتوقع أن تجدى شيئًا .. »

- « من السادة الذين يريدون لنا الفشل ؟ »

انحنيت ورحت أعبث بالدبابيس المغروسة فى الخارطة، وبدا لى أننى (روميل) يوشك على إصدار أوامره بالتقدم نحو (العلمين) .. وقلت :

- « لا أدرى .. لكنهم هناك دائمًا .. لابد من جهة ما تريد لنا الفشل .. فى (بوركينا فاسو) كانت هناك شركات الأدوية ومن يرغبون فى أراضى النهر و ... و ... لابد من بعضهم فى كل مكان .. »

ثم عقدت يدى متشابكتين كما يفعل الهنود فى التحية وسألتها :

- « هل أنت متحمسة برغم أن الأمر لا يعنينا ؟ »

- « مادام هناك أطفال يموتون أو يمرضون فالأمر يعنينى .. وما سأقوم به ليس بالخطر الداهم ، ولسوف يرفع عن كاهلنا ثقلاً لا بأس به »

- « هل عندك خطة ما لدخول مسكن الممرضات ؟ »

- « سأجد طريقة .. لو كانت تقيم وحدها أو مع واحدة من ممرضات (الكالا آزار) ، فسيكون الأمر سهلاً .. سأختار الوقت الذى يعملن فيه ميدانيًا .. »

- « والدخول ؟ هل معك ذيل سحلية يصلح لفتح الباب ؟ »

ابتسمت وقد تذكرت أيام (سافارى) الأولى العزيزة وقالت :

- « ليس معى .. لكن تذكر أن هذه الوحدة مبنية ببراعة وعناية .. الأقفال على الأبواب محكمة وهناك أجهزة تكييف تعمل .. لابد من التحايل .. »

- « وكيف تنوين التحايل ؟ »

ـ « هـذه مشكلة الطبيبـة الكنـدية الذكيـة .. دع الأمور لى »

وافقتها وكنت أعرف أنها ستنجح لأن ذكاءها خارق ، وستقوم بالعمل أفضل منى بمراحل .. أضف لهذا أنه لا يوجد خطر حقيقى أو هـذا ما أعتقده .. حتى لو انكشف أمرها ـ وهذا لن يحدث ـ فلن يتهمها أحد بالسرقة من الممرضة البائسة ..

★ ★ ★

فى الصباح قابلنى (سينوريه) أمام السيارتين اللتين كـان محركاهمـا يهـدران استعدادًا للحملة التالية ..

كان وجهه ممتقعًا قليلاً ، وقد طلب أن ينتحـى بى جانبًا .. مشيت معه وأنا أختلس النظرات إلى الوراء حيث كانت الممرضة الكينية النحيلة إياها عاكفة على وضع حقائبها فى السيارة ..

قال لى بعد ما ابتعدنا قليلاً :

ـ « ثمة أشياء لا أفهمها .. المرض عاد يتوحش فى قرى أخرى .. »

نظرت له فى غباء .. ماذا يعنيه بالضبط ؟ مستحيل أن ترجع عمليات التخريب بينما تحولنا جميعًا إلى صقور متحفزة لاصطياد الأخطاء ..

ـ « ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ »

ـ « أرى الحيـرة على وجهـك ، وهـو نفس ما ارتسم على وجهى أمس حين جاءنى ذلك الفاكس وعرضه على المدير .. كنت أحسبنا أغلقنا هـذا الباب .. »

استدرت أرمق الممرضة كأنما أخشى أن تفر منى أو تتورط فى مصيبة ما ، وقلت للرجل :

ـ « هل تعنى أنه ظهر فى قرى لم نقم بزيارتها قط ؟ »

ـ « كلا .. بل فى نفس قرى الحملة .. وكنت أحسبنا سيطرنا عليه .. »

قلت له فى ضيق :

ـ « أنا أراقب الممرضات جيدًا ولا توجد فرصة للتلاعب الآن .. هذا المرض الذى بدأ ينشط كان فى فترة الحضانة الخاصة به من قبل ، ولم يظهر إلا الآن .. ثمة حقيقة واحدة : المرضى ـ منذ شفيت أنا ـ لم يتلقوا إلا أفضل العلاج .. »

قال لى وهو يعود للانضمام إلى الزحام :

ـ « أعتقد أن هناك جوابًا آخر للمشكلة لا نعرفه ولم يخطر لنا قط .. وإن كنت لا أعرف من أين نبدأ .. »

من غرفة (مالوالا) نبدأ .. قلتها فى سرى ولم أجسر طبعًا على إعلانها ..

إن (برنادت) ستحاول اليوم . بعد ساعة واحدة .. فلو سار كل شىء على ما يرام لصار عند (جهينة)

ـ بل (برنادت) ـ الخبر اليقين فى نهاية اليوم .. وإن كنت أتوقع لا إجابة على غرار : لا يوجد شىء ..

هذا أقرب للواقع ، وهو ـ غالبًا ـ ما سيحدث لدى عودتنا ..

لكن كانت هناك مفاجأة .. مفاجأة من النوع الذى لا يروق لى على الإطلاق ..

* * *

١٠ـ لغز جديد ..

حين وصلنا إلى القرية الأولى كانت هناك فوضى غير عادية ، وأحاط القوم بالسيارة وراح كل منهم يحكى شيئًا مهمًا ، وإن كنت لا أعرف ما هو ، ونظرت فى فضول إلى مترجمنا الهمام ، فقال لى :

- « يبدو أن هناك حالات جديدة من المرض .. هناك مريضان على وشك الموت .. »

هرعنا إلى الكوخ الذى بدا أنه صار محور القرية الآن .. وكان مظلمًا عفن الرائحة حتى إنك لن تندهش لو عرفت أنه سبب المرض الأوحد .. انتظرت هنيهة حتى تعودت عيناى الظلام ، ونظرت جيدًا ..

كان هناك رجل وامرأة أرقدوا كلاً منهما على حشية من القش ، وكانا الآن فى آخر مراحل الغيبوبة مع كثير من الـ Carphology كما يسمونه ، وهو ذلك الشعور

المزعج الذى ينتاب المريض كلما أفاق بأنه يغوص فى حشايا الفراش ، من ثم يتمسك به بمخالبه كى لا يغوص أكثر ، وهى من العلامات المعروفة لدنو النهاية ..

تربعت على الأرض وتحسست رأسى .. لم أدر أن دمعة كانت توشك على السقوط من عينى ..

كان هناك مريض واحد بحاجة إلى رعاية عاجلة .. هذا المريض هو أنا .. فلتقطع ذراعى لو كنت أفهم شيئًا .. ما الذى يدور هنا ؟ ما سبب لعنة هذا الوباء ، وما الذى جعله أقوى منّا جميعًا ، ومن كل علمنا ؟

وجلس (سينوريه) جوارى ، وقال همسًا وهو يتحسس نبض المرأة :

- « جرّب زيادة جرعة (البتوستام) .. »

- « هذه القرية تلقت أقوى جرعات ممكنة .. وقد كان هذان على وشك التحسن منذ أسبوع .. »

- « لا بد من عمل شىء .. »

قلت له فى قنوط وشىء من الوقاحة لم أتعمدها :

- « نعم .. يمكنك الانتظار حتى يموت هذان فتغمض عينيهما .. إنها مهمة لا بأس بها لطبيب لا يعرف ما ينبغى عمله .. »

نظر لى فى حدة ولم يقل شيئًا .. لكنى أدركت أنه غاضب ..

هنا دخلت الكوخ إحدى الممرضات ، وكانت هى النحيلة الكئيبة (مالوالا) - لسوء حظها طبعًا - لتسألنى بطريقتها الباردة الرتيبة التى تثير الحنق :

- « هل أعطيهما بعض الدكستروز يا دكتور ؟ »

نظرت لها فى غيظ .. وصحت :

- « لا تلمسى شيئًا !! »

نظر لى (سينوريه) فى دهشة واستنكار .. يبدو أننى لعبت دور الأحمق بشكل مبالغ فيه .. ثم إنه كلمها بصوت هادئ متعقل :

- « يمكنك أن تبدئى بحقن الدكستروز يا أختاه .. »

ثم همس فى أذنى :

- « لا تكن طفلاً .. ماذا بوسع أية ممرضة أن تعمل ونحن جالسان كغرابين ؟ »

لكننى لم أشعر براحة لكلامه ورحت أرقب الفتاة فى شك .. من الغريب أن شيئًا من الارتباك لم يبد عليها ، وظلت تعمل ببساطة كأن شيئًا لم يكن .. إما أنها غبية جدًا كثيران الجر وإما أنها شريرة كالشر ذاته ..

* * *

رحت أمارس عملى بين الحالات وهى عملية صارت ثقيلة الظل حقًا ، خاصة مع العدوانية التى يتعامل بها الأهالى ، وذلك الشعور العام بأننا إنما نضيع وقتهم ..

لم يكن هناك من يرحب .. لكنى انتزعت الحق فى الفحص انتزاعًا ، وكنت أرجو أن ننتهى سريعًا قبل أن يموت المريضان ، لكن هذا سيزيد الأمور سوءًا .. حقًا كان (سينوريه) يرعاهما لكنها رعاية من يجلس جوار المحتضر ، فقط كى لا يموت وحيدًا ..

الحق أقول لكم إننى بدأت ألاحظ أمورًا لم ألحظها من قبل .. لعلها كانت موجودة طيلة الوقت وكنت أنا غبيًا .. أم لعلها ظهرت هنا الصدفة .. لا أدرى .. لكنها علامات مقلقة ..

أولا لاحظت حالة من سرطان (كابوزى) وهو أقرب إلى بقع بنية خشنة فى جلد المريض .. وكنت أعرف جيدًا معنى أن أرى سرطان (كابوزى) كما كنت أعرف كيف يبدو ..

وتصلبت الشعيرات فى فروة رأسى ..

من جديد لاحظت حالتين امتلأ فمهما بالفطر .. وهو مشهد شهير لا تخطئه العين ..

الآن صار الحذر واجبًا ..

الآن يبدو أن ما يحدث لهذه القرية صار واضحًا ..

* * *

- « لا أدرى ما تعتقده .. لكن هذه القرية موبوءة بحق .. »

قلتها لـ (سينوريه) ونحن جالسان فى الكوخ إياه .. وأضفت :

- « ثمة حالات من الفطر فى الفم .. وحالة سرطان (كابوزى) .. »

صاح فى ضجر وهو يبعد الفكرة بيده عنى :

- « رباه ! لا تقل هذا الهراء .. هل تعرف معنى هذا ؟ هل تعرف معنى أن تتكلم عن سرطان (كابوزى) فى شخص طبيعى مثلى ومثلك ؟ »

- « أعرف يا سيدى .. وأعرف أن معنى هذا أنه مصاب بمتلازمة فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز) .. لكنى أرجو أن تفحص هذه الحالات وتقول رأيك .. »

الحقيقة أن اكتشاف الإيدز - هدية الفيروسات للبشرية - بدأ بملاحظة مرضين غريبين ينتشران أكثر من اللازم فى أوساط الشباب المنحلين فى (سان فرانسيسكو) .. وكان سرطان (كابوزى) هو أحد المرضين .. إنه سرطان غريب يبدأ فى الجلد

غالبًا ، ويصيب الأطفال فى إفريقيا من زمن .. لكن انتشاره فى الولايات المتحدة كان معناه أن هناك سببًا ما يؤدى لفقد القوم مناعتهم .. من هنا عرف العلم اسم المرض القاتل الذى يحصد الملايين ولم يتوقف قط ..

ولقد اعتبرت منظمة الصحة العالمية العثور على سرطان (كابوزى) مبررًا كافيًا لأن تشخص (الإيدز) بصورة أولية .. الآن يوجد سرطان (كابوزى) فى هذه القرية كما توجد فطريات فى الفم ..

إن مرض (كالا آزار) يسبب فقدان المناعة .. فهل يكفى وحده لتفسير هذا ؟

ـ « بالطبع لا .. »

قالها (سينوريه) فى ثقة وأردف :

ـ « لم يعتبر (كالا آزار) قط من مسببات سرطان (كابوزى) .. لو كان هذا المرض (إيدز) فلربما مهد للإصابة بـ (كالا آزار) وليس العكس .. »

كان قد صار عصبيًا ، وقد راح يفحص جلد المريض بعدسة مكبرة .. إن الصورة واضحة لاشك فيها ، لكن التشخيص النهائى ـ بالطبع ـ يحتاج إلى عينة من الجلد وفحص تحت المجهر .. هذا كلام الكتب القويم لكن ..

* * *

إلا فى إفريقيا .. إن نقص الإمكانات يجعلك تعتمد على الحدس أكثر من اللازم .. لابد من مال .. مال كثير كى تمارس الطب بالمثالية التى تتحدث عنها الكتب »

* * *

قديمًا قالوا عن الدرن : « بعد فحص المريض يكون الدرن احتمالاً .. بعد أشعة الصدر يكون الدرن اشتباهًا .. بعد المعمل يصير الدرن حقيقة لا شك فيها .. »

* * *

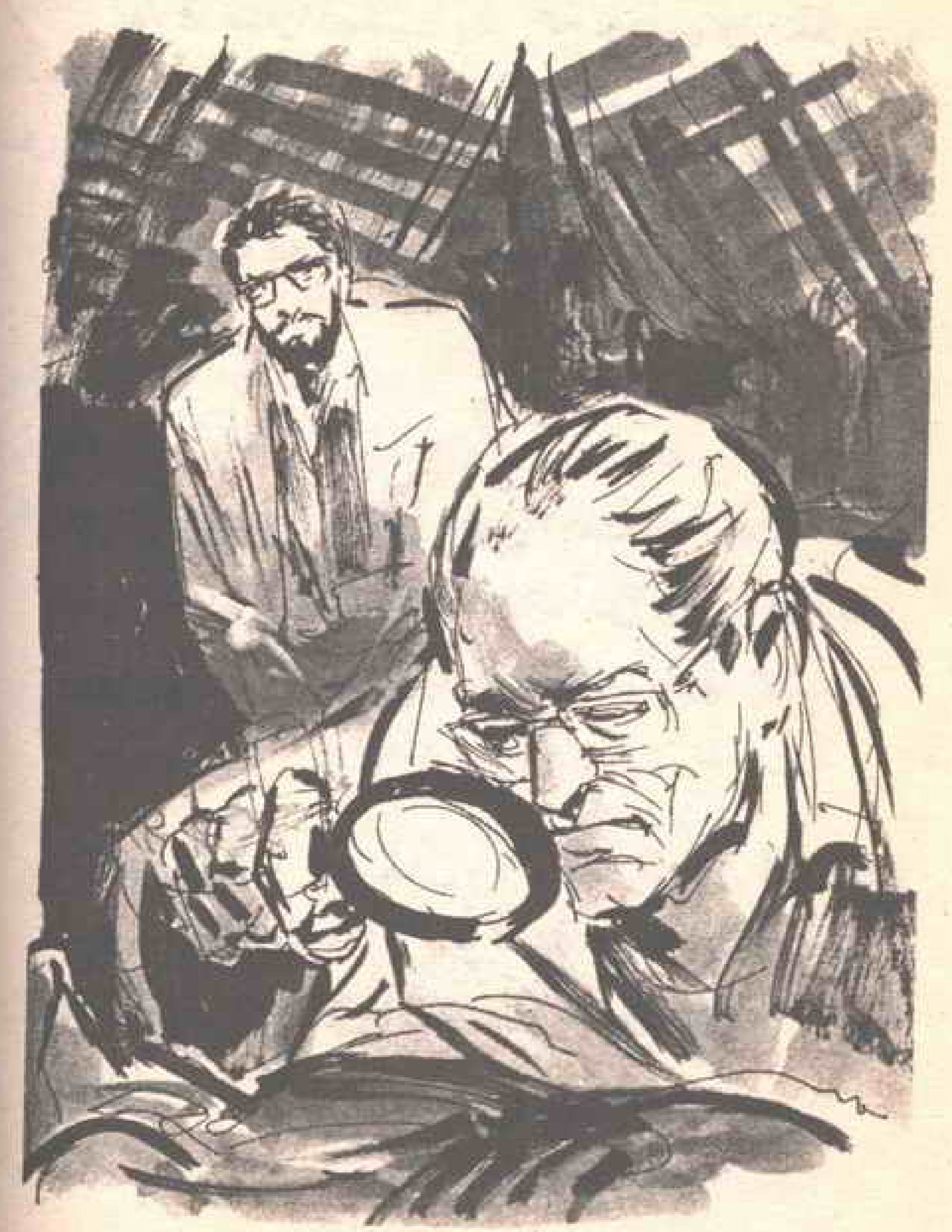
قال (سينوريه) بعد ما انتهى من فحص الجلد ، ومن فحص شامل للحالات التى أثارت ريبتى :

- « لاشك فى أن هذا سرطان (كابوزى) .. أهنئك بالنسبة للشق الأول من تشخيصك .. لكن هذا لايعنى الإيدز .. يعنى فقدان المناعة المكتسب ! »

هذا الرجل عبقرى إذن من العباقرة الذين تجدهم تحت كل حجر فى العالم .. قلت له :

- « وهل يوجد فارق ؟ »

- « نعم لا تنس أن البول السكرى يسبب فقد المناعة .. لا تنس أن السرطان اللمفاوى وشلل النخاع يؤديان لفقد المناعة .. لا تنس هؤلاء المرضى قد أخذت منهم عينات دم كثيرة .. هذه القرية بالذات لم نر فيها حالة (إيدز) واحدة من قبل .. ولا أظننا سنجد .. لا تنس أن تحاليل الدم سلبية لهذا المرض .. لسنا هنا بصدد حالة إيدز يابنى .. وإنما شىء آخر .. »



كان قد صار عصبيًا ، وقد راح يفحص جلد المريض بعدسة مكبرة ..

كان قد تحمس جدًا ، وضاقت عيناه الفرنسيتان الضيقتان أصلاً إلى حد أنهما تحولتا إلى نقطتين كاللتين تراهما فوق حرف التاء هذا .. وراحت سرعة كلماته تتلاحق ..

ثم إنه قال لى وهو يخرج من الكوخ ويجذبنى من ذراعى :

ـ « تعال معى بعيدًا عن هذا الجو الخانق .. لنرتب أفكارنا .. إن لدينا بعض القهوة فى السيارة .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. أعتقد هذا .. »

ـ « عظيييم ! إن الكافيين هو ما أتوق إليه الآن .. »

وهناك جوار العربة الواقفة فى ظل الأشجار حيث تحوم ذبابات الصحراء بلا انقطاع ، وحيث يرتجف الهواء نفسه من حرارة الجو ، فترى الأفق يرتجف .. وحث ترتسم ظاهرة السراب بوضوح تام عبر المسافات ..

هناك وقفنا ، ونظر لنا السائق الكينى (توماس) فى دهشة حيث جلس القرفصاء على الأرض ، يصلح شيئًا ما فى إطار سيارته .. كان قد سكب على العجلات الكثير من الماء لتخفيف حرارتها ..

قال له (سينوريه) وهو يفتح باب السيارة الأمامى :

ـ « لا تقلق يا (توماس) .. نريد ترموس القهوة .. استمر فى عملك .. »

وتناول كوبين ورقيين وصب لى وله بعض السائل الساخن القوى ، ففاحت أزكى رائحة يمكنك تخيلها ، وقال وهو يستنشق البخار إلى رئتيه فى نهم :

ـ « هم م م م م م م م ! هكذا ! والآن احك لى قصتك وسأبدى لك رأيى .. »

حكيت لـه فى النصف ساعة التالى كل شىء .. حكيت له عن استنتاجات (برنادت) وعن الدبوس الأخضر وعن (مالوالا) الكئيبة الغامضة .. التى عم الوباء كل قرية زارتها ..

راح يصغى باهتمام .. ويرشف القهوة باستمتاع متعمدًا أن يبقيها فى فمه أطول وقت ممكن وهو مستمر فى السماع .. فجأة تصلبت ملامحه وهتف :

ـ « مارى (التيفويد) ! كيف لم يخطر لنا هذا ببال ؟ إننا أغبياء حقًا ! »

* * *

١١ ـ مارى التيفويد .

قال (سينوريه) :

ـ « (مارى مالون) كانت طاهية فى نيويورك عام ١٩٠١ ، وكانت تحمل بكتريا التيفويد دون أن تدرى .. أنت تعرف أن حامل العدوى يكون غالبًا سليمًا لا يشكو من السم الذى يوزعه .. وكانت (مارى) تتنقل من بيت لبيت لبيت ، وخلفها كان وباء التيفويد يزحف ليودى بأسر بأكملها .. ولهذا صار هذا المصطلح معروفًا فى عالم الطب ..

« مارى التيفويد Typhoid Mary يعنى ببساطة حامل العدوى المتنقل الذى يبدو مثلى ومثلك .. »

قلت له فى غباء حقيقى :

ـ « مازلت لا أفهم ما تعنيه .. »

كنت أتوقع استنتاجًا معوجًا كالعادة ، لكن الرجل كان منطقيًا هذه المرة :

- « أولاً نحن متفقان على أن وباء (كالا آزار) فى هذه القرى لا يستجيب للعلاج .. نحن متفقان على أن هناك من فريق العمل من يتلاعب بالعلاج ويبدله أو يعطى سمًا ناقعًا .. لقد اتفقنا حتى هذا الجزء .. »

- « موافق .. »

- « الآن توجد مشكلة .. من الواضح أن التلاعب انتهى من زمن ولا دليل عليه .. إن ممرضاتنا بريئات وأنا متأكد من هذا .. ولو لم يكنّ بريئات فلا توجد جهة أعرفها يهمها قتل سكان القرى بمرض (كالا آزار) .. إن نظرية المؤامرة ممتعة وتروق للعامة دائمًا ، لكنها كلام فارغ بالنسبة لحالتنا هذه .. هل تتابعنى ؟ لكن الوباء مستمر فى الزيادة .. هنا نجد علامات مرضية مريبة جديدة لدى سكان هذه القرية .. ماذا تستنتج من هذا ؟ »

- « أن المرض ليس (كالا آزار) .. »

- « لكن أطباء المختبر يقسمون بقبور أمهاتهم أن هذا (كالا آزار) .. »

- « ربما هم حمقى .. »

- « وربما كان هناك مرض آخر - ليس الإيدز لكنه يشبهه - يصيب الناس هنا ويفقدهم مناعتهم ويؤدى لسهولة إصابتهم بداء (كالا آزار) .. مرض يؤدى لتوحش المرض الأسود وعدم استجابته للعلاج .. أنت تعرف مدى صعوبة السيطرة على خراج بسيط حينما يكون المريض مصابًا بالبول السكرى .. لحظتها تشعر كأن الخراج مرض لا علاج له .. لقد لعب المرض الأول المجهول دور التربة ثم جاء (الكالا آزار) ليجد الأرض ممهدة صالحة لبقائه وتوحشه .. »

فكرت فى كلامه وبدا لى منطقيًا ، لكن ما دور (مارى) التيفويد هنا ؟

قال كأنما سمع أفكارى :

- « لاتوجد ممرضة هنا تنقل المرض المجهول شبيه الأيدز عمدًا إلى الأهالى . لكننا نعتقد أنها تفعل ذلك عن غير عمد .. ثمة ممرضة تحمل مرضًا جديدًا لا نعرفه ، وهى تحاول علاج الناس لكنها فى الواقع تنقل لهم ما هو أشد فتكًا من الـ (كالا آزار) .. إنها اللعنة التى تحل على كل قرية تدخلها .. وبعد زياراتها المتكررة تختل مناعة الناس ويتفشى المرض ، ويقاوم علاجنا .. لكن البائسة لاتعرف مثلما كانت (مارى) لاتعرف .. »

بدأت أتوتر وبدا لى كل هذا عسير التصديق .. قلت :

- « وهذه البائسة هى .. »

- « كل الدلائل تقول إنها (مالوالا) هذه .. إن الدبوس الأخضر لايكذب كما تعلم .. »

ثم هزّ رأسه فى ضيق ، وأردف :

- « وبالطبع لم يستطع المختبر فهم المشكلة .. إن المرض جديد ولا أحد يعرف عنه شيئًا .. ولم يحاول أحد البحث فى العينات عما هو أبعد من (الليشمانيا) بينما المشكلة العظمى هى الشىء الذى جلب (الليشمانيا) .. »

هنا ألقيت بالكوب الورق من يدى وصحت :

- « كيف ينتقل هذا المرض الجديد ؟ »

- « لانعرف بعد .. ربما بسوائل الجسم أو باللمس أو الاستنشاق أو عبر الدم .. لن نعرف حتى نبحث جيدًا .. إننا .. بلا بلا بلا .. »

كنت أنا شارد الذهن ..

كانت عيناى هناك فى (سافارى) .. فى غرفة الممرضات .. كنت أرى رأى العين (برنادت) تتسلل لحجرة خاوية يملؤها مرض فتاك .. مرض لاتدرى صاحبته أنها تحمله ، لكنها تنشره مع أنفاسها وسعالها وبولها ..

كنت أرى (برنادت) فى خطر .. خطر لاتعرف أنه موجود أصلاً ..

★ ★ ★

عدت إلى الوحدة فقطعت درجات السلم إلى غرفتى فى أربع أو خمس قفزات ..

فتحت الباب فوجدت (برنادت) متربعة كهرة صغيرة على الأريكة منهمكة فى رتق أحد جواربى ..

لم أتمالك إلا أن أحتويها بين ذراعى وأنا أرتجف رعبًا .. أرتجف انفعالاً .. هذا المذاق المالح على لحيتى .. هل هى دمعة ؟

قالت لى وهى مخنوقة قليلاً من ضغط صدرى على وجهها :

ـ « ما بك ؟ هل كان يومك سيئًا إلى هذا الحد ؟ »

ـ « فظيعًا ! »

ـ « هلا أطلقت سراحى كى أعد لك بعض الطعام ؟ »

سألتها فى إلحاح قبل أن تفلت :

ـ « هل دخلت الغرفة ؟ »

ـ « تأكل أولاً ثم أحكى لك عن ... »

ـ هل دخلت الغرفة ؟ »

كانت خشونتى بلا مبرر بالنسبة لها ، فقالت فى فتور وهى تبتعد :

ـ « طبعًا ! ماذا كنت تظن ؟ »

كان هذا كافيًا لى .. لقد أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة .. فسألتها متمالكًا أعصابى :

ـ « لم تجدى شيئًا .. »

ـ « طبعًا .. وأيضًا ماذا كنت تظن ؟ لا يوجد فى الغرفة إلا ثياب رثة وآنية طهى والكثير من الغبار .. »

ـ « غـ .. غبار ؟ أنت استنشقت الغبار ؟ »

ـ « نعم .. لقد قلبت حشية الفراش لأرى ما تحتها .. كانت هناك حشرات لا أعرف اسمها تلدغ بشراسة .. وكان الغبار لا بأس به أبدًا .. »

ـ « الـ .. حشرات لدغتك ؟ »

ـ « نعم .. لقد استحممت بمجرد عودتى وغسلت الثياب كلها .. لا تقلق .. إن هذه الفتاة قذرة إلى حد لا يصدق .. وإننى لأشعر بالمرض كلما فكرت فى غرفتها ! »

ـ « تـ .. تشعرين بالمرض ؟ »

وقلت لنفسى : حسن .. لقد فعلت (برنادت) كل ما من شأنه أن يقتلها .. شمت ولمست ولدغتها الحشرات .. أى أنها تقريبًا جربت وسائل العدوى التى يعرفها تاريخ الطب ، وكان عليها أن تحقن نفسها ببعض من دم تلك الممرضة .. لو أرادت أن يكون عملها كاملاً ..

ماذا أفعل أو أقول ؟ إن المستقبل يبدو بهيجًا إلى حد مرعب ..

وحين أطفأت النور وتمددت فى الفراش ، نظرت لها فى الظلام وهى تغيب ببطء فى عوالم النوم على ثغرها

شبح ابتسامة .. كيف لو عرفت ؟ لن تعرف أبدًا إلا إذا مرضت .. أما أنا فليرحمنى اللّه .. ربما كنت الآن أنام جوار وباء جديد لا يعرف الطب عنه شيئًا .. لكنى لا أبالى .. لا يهمنى ما يحدث لى أبدًا ، لكنى لا أتحمل أن أرى شيئًا يحدث لأحبائى ، وهذا يبدو لى ـ صدق أو لا صدق ـ نوعًا فريدًا من الأنانية .. أنانية متنكرة يصعب اتهامها بذلك ، وتبدو لمن ينظر بسطحية قمة الإيثار .. أتمنى أن أموت قبل أمى .. هذه أنانية شنيعة كما ترى .. قرار من آلام الفراق .. لكنى أهدى أمى هذه الآلام التى ستمزقها وهى ترمق جثتى ..

أبعدت عن نفسى عن هذه الهواجس وقلت لها : غدًا يوم آخر ..

* * *

فى الصباح ذهبت إلى الحمام فوجدت (برنادت) قد سبقتنى ..

كانت واقفة أمام المرآة تنظر لوجهها وتتحسس عنقها فى شك ..

ـ « ماذا هناك يا ملاكى ؟ »

مدت يدها تمسك بيدى ووضعتها على عنقها ، وقالت وهى تنظر لأعلى :

ـ « هل تشعر بهذه ؟ تحرك لليمين قليلاً .. لا .. ليس هنا .. أعلى قليلاً .. ها هى ذى .. هل تشعر بها ؟ إنها عقد لمفاوية !! »

كان التشخيص دقيقًا وتقلصت أمعائى حتى سمعت صوت الـ (برررررروم !) المميز ..

ـ « شعرت بارتفاع فى حرارتى عند الفجر ، ثم صحوت لأجد أن البلع مؤلم و ... »

ربما كان هذا بلا معنى على الإطلاق .. ربما مجرد التهاب حلق أو لوزتين ؟ لكن لماذا أشعر بهذا القلق

والعرق يحتشد على جبهتى ؟ لو كان مجرد التهاب حلق فلماذا اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدث أمس أو منذ أسبوع ؟

قالت وقد شعرت بأننى بدأت أتوتر :

ـ « لا تقلق .. لابد أنه التهاب حلق .. سأبتلع بعض الأمبيسيللين .. ولكنى أرغب فى إجازة اليوم .. لست على ما يرام .. »

كنت أنا أيضًا على غير ما يرام ، وسرنى أن اليوم إجازة لى باعتبارنا كنا فى مهمة ميدانية أمس .. وقلت لنفسى : لا يوجد مرض حضانته بهذه السرعة .. لكن من أدراك ؟ هذا مرض غامض جديد لا نعرف عنه شيئًا .. حين ظهر فيروس (لاسا) لم يصدق أحد أن هناك مرضًا ينتقل بهذه السرعة .. حسن .. كانوا على خطأ كالعادة ..

جعلتها تستريح فى الفراش وارتديت ثيابى كى أبلغ الإدارة ، ثم آتى لها بوجبة إفطار من الكافتيريا ..

فى الطريق إلى هناك قابلت (سينوريه) فصاح فى حماسة حين رآنى :

- « أين أنت ؟ »

لم أخبره بموضوع (برنادت) لأنه سيجعل الأمر سيئًا بالنسبة لى .. إنه كما يقول المصريون (يريد جنازة يشبع فيها لطمًا) .. فيما بعد سأخبره حين أتأكد يقينًا أن ما أصيبت به (برنادت) ليس التهاب حلق ..

قلت له :

- « كنت نائمًا .. لم أعرف أنهم منعوا ذلك .. »

- « لقد أبلغتِ الإدارة الممرضة (مالوالا) بألا تذهب إلى العمل الميدانى اليوم ، ونحن ذاهبون

الآن لنقنعها بأخذ عدة عينات منها .. لسوف تحلل دمها وبولها وبرازها وبصاقها ونخاع عظمها ! »

- « لماذا لا تضعونها هى نفسها داخل جهاز التحليل لتوفروا وقتًا ؟ »

لم يفهم الدعابة .. ومشى بخطواته النشطة إلى المختبر ومشيت وراءه متوجسًا ..

كانت جالسة هناك وعيناها الواسعتان متسعتان كعينى بقرة .. وبدا التوتر واضحًا لكنها لم تعرف بعد ما يدور فى أذهاننا .. قال لها (سينوريه) بترفق :

- « لا أدرى كيف أبدأ .. أرجو ألا أثير قلقك لكنى .. »

ثم مسح فمه بظهر كفه وفكر قليلاً ، وعاد يقول :

- « نحن بحاجة إلى الاطمئنان على صحتك .. صحة كل الممرضات هنا .. لهذا سنسألك بعض

الأسئلة ثم نسحب عينة دم من أجل بعض التحاليل فى المختبر .. »

بدا عليها التوتر أكثر .. أقسم إننى خفت أن تسقط عيناها على الأرض من فرط الجحوظ وقالت :

ـ « ماذا تريدون ؟ »

ـ « بعض التحاليل .. شىء روتينى لا أكثر .. »

وجاء دكتور (فرهاد) طبيب المعمل حاملاً محقنًا فارغًا وزجاجة .. وكان قد حرص على أن يضع على أنفه كمامة وأن يلبس قفازين فوق بعضهما .. أعترف أن منظره كان مريعًا خاصة مع ضخامة جثته ..

ـ « أنا لا أريد ! »

قالتها فى عصبية وهى تقف متصلبة وتدارى ساعدها ..

هنا كشر (سنوريه) عن أسنانه فى ابتسامة مجاملة مريعة وقال :

ـ « أخشى أن حرية الاختيار ليست مكفولة .. هذا أمر إدارى من المدير شخصيًا .. »

ـ « لا ! »

كان بوسعها الإصرار على الاعتراض ، فليس من حقنا أن نكبلها مثلاً إلى أن نأخذ العينة .. ولو فعلنا لوقعنا فى مشاكل جمة .. لكنها كانت حمقاء كما توقعت ..

كراش ش ش ش ش !

ونظرنا فى ذعر فوجدناها قد أمسكت بقارورة زجاجية كانت جوارها على النَّضَدِ ، فهشمتها على حافته ثم وقفت ملوحة بالعنق المكسور الذى تحول إلى سلاح قاتل لا ريب فيه .. وصاحت :

ـ « لا أحد يدنو منى ! لا أحد .. »

وبدأت تبكى فيسيل الدمع من فتحتى أنفها الواسعتين ، ليلقى ما يسيل من عينيها ..

إنها تعرف إذن ! هذا الإصرار يدل على أنها تعرف النتيجة مسبقًا ..

قلت لها فى تردد :

ـ « (مالوالا) .. كفى عن التهور .. لا أحد يفعل هذا من أجل عينة روتينية .. »

لوحت بعنق الزجاجة وهى تتراجع إلى الوراء :

ـ « أنا لا أمزح يا دكتور .. سأمزق من يدنو منى .. »

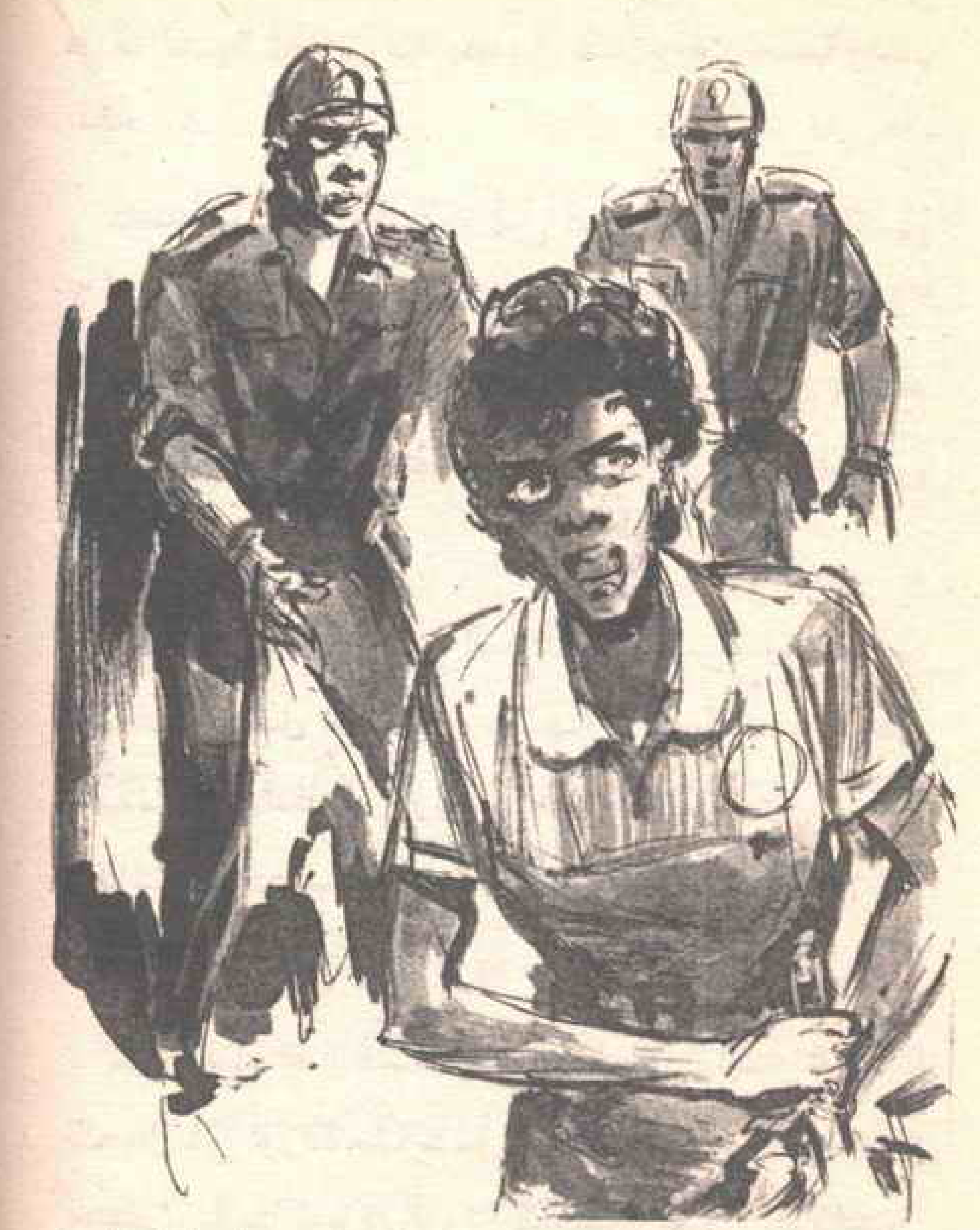
كان (فرهاد) قد قام بالواجب ، فاتصل بالأمن .. وسرعان ما ظهر ثلاثة عمالقة سود من فتحة الباب .. عمالقة لا يعرفون بالضبط كيف يتصرفون .. وصاح أحدهم بالسواحلية يأمرها بترك السلاح

طبعًا لكنها نظرت له بعينين حمراوين تمامًا ولم تتكلم ..

كنت أتمنى أن أشارك فى هذا المشروع ، لكننى لا أضمن لحظة أن يمزق هذا السلاح وريدى الودجى .. ثم إن التلاحم معها خطر .. لن يسلم الأمر من خدش أو عضة فهل آمن ألا تكون نهايتى فيها ؟

كنت أعرف أن هذه المواقف تنتهى حين يمل الشخص حمل السلاح ، وتنهار أعصابه .. ليس علينا إلا الانتظار وربما احتساء الشاى .. كلا لا داعى لإحضار الطاولة طبعًا لأنه لا توجد واحدة ..

لكن الفتاة كما قلنا كانت حمقاء .. لقد غرست النصل فى أوردة ساعدها وراحت تمزقها فى جشع ونهم ، كأنما تمزق أوردة شخص آخر .. وانفجر



لكن الفتاة كما قلنا كانت حمقاء .. لقد غرست النصل فى أوردة ساعدها ، وراحت تمزقها فى جشع ونهم ..

الدم كنافورة لكنها لم تبال لحظة .. وقالت بالفرنسية :

ـ « هكذا .. لن تجدوا دمًا تحللونه ! »

وكانت هذه هى فرصة رجال الأمن ..

* * *

١٢ ـ مرض مجهول ..

بعد ساعتين من العمل المتواصل استطاع فريق جراحة الأوعية أن ينقذ الفتاة .. وكان عليها بعد هذا أن تبقى فى الفراش مقيدة كما يفعلون مع المساجين الخطرين المرضى ..

خرجت من غرفة الجراحة لأننى كنت أساعد هؤلاء القوم .. ونزعت ثيابى ، ودخلت غرفة الانتظار المجاورة لأجد (سينوريه) .. كان شاردًا يطالع بعض أوراق المختبر فسألته :

ـ « هم م م م م ؟ »

قال وهو لا ينظر لى :

ـ « HIV .. الفتاة مصابة بمرض (الإيدز) ! »

تصلبت ونظرت له بعض الوقت .. ما معنى هذا ؟

ـ « هل هذا هو تفسير كل شىء إذن ؟ »

ـ « لا يفسر شيئًا .. من الواضح أن الفتاة كانت تعرف أنها مصابة بهذا الداء الوبيل ، ولهذا كانت تتحاشى أن يحلل أحد دمها لأن معنى هذا الطرد من الوحدة ، وربما من قريتها كذلك .. إن الإيدز يعنى الموت .. لكنه كذلك قد يعنى الفضيحة ! »

جلست جواره وسألته فى صبر :

ـ « هل تريد القول إن الفتاة كانت تنقل الإيدز لكل هذه القرى ؟ »

ـ « لا تكن طفلاً .. الإيدز لا ينتقل بالتعامل واللمس مالم تكن حريصة على حقن كل المرضى بدمها .. لا .. ثم لا تنس أننا لم نجد أثرًا لهذا الداء فى كل القرى التى استفحل فيها داء (كالا آزار) .. القصة أبسط من هذا .. الفتاة أصيبت بالإيدز من زمن وأخفت هذا حتى وجدتنا نطلب منها تحليل دمها .. عندها أصيبت بحالة من الهستيريا وكادت تفتك بنفسها كى لا يفتضح أمرها .. »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

وضع التقارير أمامه ونظر لى وابتسم :

ـ « معناه أن من ينشر الوباء فى القرى المنكوبة شخص آخر ! »

* * *

فى غرفتى سرنى أن وجدت (برنادت) أفضل حالاً ..

قالت إن حلقها ما زال يؤلمها لكننى تعاملت مع الأمر بخفة .. ما دامت (مالوالا) ليست صاحبة الوباء فلا خوف هنالك .. صحيح أنها مصابة بالإيدز ، لكن الإيدز لا ينتقل إلا فى ظروف خاصة ليس دخول حجرة المصاب من بينها ..

كانت (برنادت) جائعة الآن كعصفور وليد ، وكنت قد أحضرت لها بعض البسكويت والعصير وهو كل ما وجدته فى الكافيتيريا لأننى تأخرت كثيرًا بسبب أحداث الصباح ..

جلست جوارها على الأريكة وفتحت لها عبوة بسكويت ، وتناولت واحدة شطرتها نصفين .. نصف فى فمها ونصف فى فمى .. أنا أيضًا لم آكل شيئًا بعد ، ولحسن الحظ أن الغداء قد دنا موعده ..

حكيت لها القصة كاملة فأصغت باهتمام ، وتقلص وجهها ألمًا وهى تتخيل الفتاة تمزق أوردة معصمها ..

فى النهاية قلت لها :

ـ « هكذا ترين أن المشتبه فيه رقم واحد قد خرج من دائرة الاشتباه .. »

ـ « أرى .. » ـ وعقدت كفيها تحت ذقنها مفكرة ـ « وهذا لا يجعل الحياة أكثر بهجة .. »

ثم أضافت فى ضيق :

ـ « أخطأنا وكدنا نكلف هذه البائسة حياتها بلا مقابل .. »

ـ « لا يوجد فارق كبير .. إن الإيدز يقوم بالمهمة ذاتها دون قوارير مكسورة .. إنها بصحة جيدة الآن

ـ أو هكذا تبدو ـ لكن دكتور (فرهاد) الذى فحص دمها يؤكد أنها فى الغالب لن ترى العام القادم .. »

وساد صمت ثقيل ونحن نفكر .. كانت القصة متعارضة ومليئة بعلامات الاستفهام ، حتى إنها صارت تحديًا لا شك فيه نرغب بحق فى أن نجتازه .. كما تقضى أنت ساعات تحملق فى لغز مجلة من ألغاز أعواد الثقاب إياها .. لأن العناد يرغمك على الاستمرار برغم عدم وجود نفع مادى لهذا ..

قلت لها :

ـ « لا حل إلا أنك أخطأت فى غرس الدبابيس .. الدبوس الأخضر لم يكن يعنى (مالوالا) وإنما واحدة أخرى .. »

ـ « فرض خطأ .. أنا لا أخطئ .. »

« حتى (هومير) يحنى رأسه .. هل نسيت ؟ »

ـ « أنا لست (هومير) .. والخارطة التى أعددتها سليمة كالجرس .. »

ساد الصمت من جديد .. ترى أين الخطأ ؟ ماذا نسيناه ؟

قالت لى (برنادت) وهى تلوح بمجلة كانت تقرؤها :

ـ « هل تعرف ما كنت أطالعه هنا ؟ قصة مسلية عن عامل فى أحد مناجم الذهب ، كان يغادر المنجم كل يوم وهو يدفع عربة مغطاة بالقش .. وكان رجال الأمن يفتشون العربة بعناية لعله سرق بعض الذهب من المنجم ، لكنهم لا يجدون ما يريب فيسمحون له بالمرور .. استمر هذا لمدة شهر ثم فهم رجال الأمن السر .. لم يكن الرجل يسرق من المنجم ذهبًا ، ولكنه كان يسرق عربات يد ! »

ضحكت كثيرًا لهذه القصة ، وبدا لى أنها تنير الطريق لشىء ما .. قلت لها وأنا أفكر فى الوقت ذاته :

ـ « عندنا قصة طريفة عن (جحا) .. ذلك المضحك الخالد فى التراث العربى والفارسى .. لقد كان يركب حمارًا ومعه تسعة حمير أخرى .. كان يعد الحمير من

مكانه فيجدها تسعة .. ثم يترجل فيعيد العد ليجد أن العدد عشرة .. لقد كاد يجن وهو يكرر هذا عشرات المرات دون أن يفطن إلى .. »

ثم تصلبت ونظرت لها :

ـ « أنت تفكرين فى الشىء ذاته .. أليس كذلك ؟ لقد تصرفنا مثل (جحا) .. »

ـ « ومثل رجال أمن المنجم .. »

وبصوت واحد قلناها :

ـ « سائقا السيارتين ! لقد كانا فى كل قرية من القرى .. »

* * *

من جديد يجتمع كل هؤلاء السادة المهمين فى مكتب (ستيجوود) ..

هل تذكرهم ؟ من جديد أكرر أنهم محدثكم ـ وهو ليس مهمًا طبعًا ـ و(سينوريه) .. وأستاذ الأوبئة

(ميكايومو) وأستاذ الطب الوقائى الأمريكى (ويدمارك) .. وبالطبع خبيرة علم الأدوية الروسية (أولجا إيفانوفنا) .. ليس هذا اسمها لكنها تبدو (أولجا إيفانوفنا) إلى حد يثير الدهشة ..

قال (سينوريه) :

ـ « لقد تم كل شىء ، وبالفعل وجدنا الفيروس فى دم السائق (توماس) وكل إفرازاته .. ولسوف ترون ما توصل إليه المعمل حتى هذه اللحظة .. »

قال (ويدمارك) فى شك :

ـ « فيروس جديد يؤدى لفقدان المناعة المكتسب ؟ فيروس غير الإيدز ؟ »

ـ « هذا هو ما يشير إليه المختبر .. لكننا أرسلنا عينات لمنظمة الصحة العالمية .. وعينات إلى اليابان ومعهد (باستير) فى فرنسا .. ولسوف نعرف كل شىء عن الفيروس .. »

تساءل (ميكامويو) الياباني :

ـ « وكيف ينتقل ؟ »

ـ « المؤشرات تشير إلى أنه ينتقل بعدة طرق .. باللعاب .. بهواء التنفس .. كل طريقة يمكن لسائق أن ينقل بها فيروسًا إلى أهل القرى .. »

ـ « من أين جاء به ؟ »

ـ « لا نعرف وهو لا يعرف .. لكننا لا نعرف حتى الآن كيف ولدت أول حالة إيدز .. إن الحالة الأولى عسيرة فى العثور عليها دوما .. »

من جديد تساءل (ويدمارك) وهو يعبث بقلمه كأنه مروحة :

ـ « ما زال التفسير واهيًا .. لماذا لم ينتقل المرض إلى الممرضات ولا أطباء (سافارى) ؟ لماذا لم ينتقل لأهل هذا السائق ؟ »

قال (سينوريه) باسمًا :

ـ « بالعكس .. لقد وجدنا الفيروس فى عدة عينات من الممرضات وأهل المريض ، وإن لم تبد علاماته بعد .. لكن أهل القرية كانوا الأكثر تعرضًا لداء الـ (كالا آزار) لهذا ظهرت الحالات عندهم ولفتت نظرنا .. دعك من أننا نعتقد أن السود يصابون بهذا المرض أكثر من البيض .. ومثال الدرن شاخص للعيان .. »

نظر لى اليابانى وسأل :

ـ « وطبيبنا الشاب ؟ هل أصيب بالمرض وشفى ؟ »

قلت أنا فى كياسة :

ـ « لا يا سيدى .. لم أصب به .. أنا أصبت بحالة (كالا آزار) عادية جدًا بسبب لدغة ذبابة الصحراء .. كانت مناعتى طيبة وقد قاوم جسدى المرض بمعونة عقار (بنتوستام) .. وهى فرصة لم تتح لهؤلاء البؤساء .. »

قال فى هم :

ـ «مازال أمامنا عمل كثير جدًا .. عزل الفيروس .. معرفة طرزه الجينى .. البحث عن علاج .. لقد ذهبنا للخلاص من مرض (كالا آزار) فوجدنا أن لدينا مشكلة أعقد .. »

قال (سينوريه) :

ـ «إن العلم سيجد حلاً .. مثلما حل مشكلة الإيدز .. »

ـ « العلم لم يحل مشكلة الإيدز .. »

ـ « لكنه سيفعل .. أنا أعرف أنه سيفعل .. كل هذه العقول لن تعجز عن الوصول إلى الحقيقة .. »

ونظر لى وابتسم ..

كان إيمانه بالعقل البشرى بلاحدود .. المهم أن يعرف العلم أن هناك مشكلة .. بعدها اعتبرها انتهت فعلاً .. لا أدرى إن كان العلم سيجد حلاً سريعًا ، لكن دورى فى هذه القصة قد انتهى على كل حال ..

وكنت أنا راضيًا عما فعلناه .. لكن أحدًا لم يوجه لى عبارة شكر أو يعترف لى بالسبق وبراعة الاستنتاج .. كأن الأمر كان معروفًا من فجر التاريخ ..

لا يهم ..

يكفينى أنك نظرت لى فى إعجاب وقلت إننى بارع حقًا .. ولم أقل وقتها إن الفضل يعود لك .. قلت إننا بارعان وإن الفضل يعود لنا .. لنا معًا ..

إن واحدًا وواحدًا لا يساويان اثنين دائمًا .. أحيانًا يساويان مليارًا ..

* * *

لقد انتهت الآسيوية الجميلة الدقيقة (مادوا) من انتدابها هنا ، وحان الوقت كى تعود إلى وحدة (سافارى) فى (رواندا) ..

كانت بصحة جيدة وقد برهنت التحاليل على أن دمها خالٍ من الفيروس ، لكن هناك أخطاء تحدث من حين لآخر ، خاصة وقياس الحمض النووى للفيروس فى

الدم لم يبلغ الكمال بعد ، ومازلنا بانتظار نتائج اليابانيين كى نعرف أكثر ..

كان الفيروس يترعرع فى دم (مادوا) ولم تكن تعرف هذا وكانت ستلعب دور (مارى) التيفويد فى ركن آخر من القارة .. ماذا سيحدث ؟ ماذا سيقع من أحداث تسببها دون أن تكون مسئولة عنها ؟

أتمنى أن أجيب ..

لكن هذا - للأسف - خارج نطاق عملى فى (سافارى) .

د. علاء عبد العظيم
بورو

تمت بحمد الله .

روايات مصرية للجيب

سافاري

المرض الأسود

كما هي العادة كان هناك مرض .. وكان مرضًا قاتلاً .. وكما هي العادة أيضًا كان (علاء عبد العظيم) طبيبنا الهمام متورطًا في القصة .. الآن يكشر داء (كالا آزار) عن أنيابه ويتحدى العلاج، ويبرهن على أن الجميع مخطئون .. عندها عرف (علاء) لماذا أطلق على المرض هذا الاسم المخيف .. إن (كالا آزار) لفظة ولدت في الهند .. ومعناها - بلا تزويق - هو المرض الأسود ..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ٢٠٠

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
المأساى